مملكة النَّرد

(على بعد خطوة من مستقبل مجهول)

رواية

عدنان شبيب النهاب

أسرار

الكتاب: مملكة النَّرد

المؤلف: عدنان شبيب النهاب

رقم الإيداع: ٥٧٩٥ \ ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ١ - ٢٣ - ٦٩٣٣- ٩٧٧- ٩٧٨

***

دار الميدان للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية

هاتف ٠١٢١٠٣٤٣٥٩٣/٠٥٥٢٣١١٤٠٨

Website: www.daralmidan.com

E- mail: almidan@daralmidan.com

FB: fb.com/dar.almidan



جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، و أي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر دون أخذ موافقة كتابية من دار الميدان فإن ذلك يعرض صاحبه للمساءلة القانونية

إهداء

للفقد أنواع وفقدك كان أقساها

يا من رحلت جسداً وبقيت طيفاً حاضراً لا يفارقنا.

يا من تحمل اسمنا ونحمل اسمك ،ما أثقل الاسم بعد غيابك.

عمي الدكتور نهاب حسين النهاب

رحمك الله



لا توجد سعادة مطلقة، أو حزن مطلق، مرتبط بماهية المكان الذي تقيم به، أو بعدد الأشخاص من حولك، أو حتى بما تملك وبما تفقد، فقط هناك تفاوت بالكميات.

فالحزن والسعادة هما القاسم المشترك الذي يجمعنا وإن اختلفنا في النسب.



المقدمة

الحياة عبارة عن رحلة، سواء طالت هذه الرحلة أم قصرت، لذلك أنت معرض لكل شيء، ويجب عليك توقع كل شيء، الخذلان، الضعف، الفشل، الوحدة، تخلي الجميع عنك، الإحباط، هشاشة القلب والروح، والكثير من الأشياء التي تعترض طريقك بينما أنت ماض باتجاه حلمك الجميل.

كل تلك الأشياء التي ذكرت سهلة وبسيطة، وبإمكانك تجاوزها، لأنها أمور ومشاكل قابلة للحل وباستطاعتك تجاوزها، ربما ستأخذ منك وقتاً ولكنك ستتجاوزها، وستنظر إليها وأنت في القمة وهي في القعر، وستبتسم لتلك الأشياء من بعيد ابتسامة مليئة بالثقة بالنفس.

الشيء الوحيد الذي سيهزمك، وينال منك، ولن تستطع تداركه، هو فقدانك للشغف، ذاك الشغف الذي يغذي أحلامك وطموحاتك.

إذا فقدت شغفك بالحياة، شغفك بحلمك الجميل الذي تطمح بالوصول إليه هنا الطامة الكبرى، وهنا تكون قد غادرت الحياة روحاً وبقيت جسداً، وأنهيت رحلتك وأنت مهزوم.



وجدت نفسي أقف في وسط دوامة من أناس غرباء، يهرعون باتجاهات مختلفة، وعلى وجوههم علامات الهلع والجزع، وكأني أنا مركز الأرض وكل من عليها يسيرون في فلكي، وأنا محاط بأشخاص كثر دون أن أستطيع التعرف على أحدهم، أو حتى التعرف على المكان الذي وجدت نفسي به، كل هذه الفوضى وذاك الدوران الذي اجتاح عالمي الخارجي بدأ بالتسلل الى عالمي الداخلي، ليستقر في رأسي مسبباً لي ألم لم أعهده من قبل، ولم يزرني طوال حياتي السابقة، ألم جعلني أفقد توازني وخارت قواي على أثره، لأسقط أرضا، وبعد أن كنت لا أرى إلا وجوه أصحابها مجهولون بالنسبة لي، أصبحت لا أرى سوى أقدام تلك الوجوه، تتنقل من حولي تنقلات سريعة وعشوائية، لتصيب إحداها خاصرتي بركلة أنستني الصداع الذي سكن رأسي، فرحت وكأني أعجن خاصرتي من شدة ما سببت لي من ألم، غير أن ذلك السائل الساخن الذي امتزج بيداي شلّ كلّ حركاتي، وأصبت بحالة من الفزع وأنا أرى يداي تقطر دماً، وأنفاسي توشك على الانقطاع.

هذا هو الكابوس الذي لطالما رافقني في نومي طيلة أشهر مضت، دون أي انقطاع، وما كان يخلصني منه، وينهي معاناتي معه سوى صرخة فاصلة، تنقلني من عالم إلى آخر، من نومي إلى صحوتي، لأكتشف أن كل ما جرى معي وكل ما مررت به

ليس إلا كابوس وانقضى، ولكن هذه المرة لم أكن نائم ولم أكن أحلم، بل كنت أسترجع هذا الكابوس بينما أنا جالس في مكتبي، وما أوقف مخيلتي وتفكيري بذاك الكابوس المزعج والمؤلم في الوقت عينه، سوى صوت صاحب الجريدة التي أعمل بها الدكتور ديفيد، يطلب مني الحضور إلى مكتبه، للوهلة الأولى كنت أظن أن الدكتور ديفيد طلبني من أجل المقالة التي بين يدي، ولا سيما ومن المفترض أن أرسلها بمثل هذا الوقت، هذا ما خمنته وما زار تفكيري لمعرفتي بالدكتور ديفيد وحرصه على الوقت ودقة المواعيد.

فقمت بإرسال المقالة عبر البريد، ونهضت مسرعاً وأنا أجمع أوراقي المبعثرة هنا وهناك على سطح المكتب، وآثرت أن أسلمها بيده.

توجهت إلى المكتب ومعي الأوراق، وما إن دخلت حتى أخذت مسترسل بكلمات الاعتذار على هذا التأخير الطفيف، وبأني كنت أضع اللمسات الأخيرة على المقال قبل إرساله، غير أن الدكتور ديفيد ابتسم ابتسامة رضا توحي بأنه غير مستاء جرّاء هذا التأخير، ودون أن ينبس ببنت شفه، لينهض من خلف مكتبه متجه نحوي والابتسامة لا تزال مرسومة على ثغره، إلى أن جلس على أحد المقاعد الجلدية الفاخرة الموضوعة أمام المكتب وطلب مني الجلوس.

وضعت المقال أمامه، وأخبرته بأنها جاهزة وقد أرسلت نسخة منها عن طريق البريد، وهذه الأصلية ولا ينقصها سوى الاطلاع عليها.

غير أنه أخذ المقال وبدأ يقلبه بين يديه دون أن يبدي أي اهتمام، أو حتى أن يطلع على ما جاء فيه، ليضعه جانبا في ركن بعيد من الطاولة الزجاجية التي أمامنا.

جال في رأسي الكثير من التساؤلات عقب هذا التصرف من الدكتور ديفيد، لم أبح بها ولم أفصح عنها، ولكن أظنه رآها مترجمة بنظراتي التي لا تدلّ إلا على الاستغراب لما جرى للتو، إلّا أني آثرت الصمت عندما شعرت بقدوم حديث طويل عالق على ثغر الدكتور ديفيد، وهو يحاول إخراجه، وكل ما يؤخر هذا الحديث هو إيجاد مفتاح الحديث، ومن أين يبدأ.

هذا الشيء الذي يعاني منه جميع البشر في هذه الحياة، وليس فقط الدكتور ديفيد، الكلمة الأولى، الخطوة الأولى، الحركة الأولى، الاعتراف الأول، ففي قانون الحياة كل شيء يكون في البداية يكون في غاية الصعوبة، بل لعله الأصعب من كل ما سيأتي من بعده.

وبعد صمت مطبق دام لبرهة من الزمن سألني إن كنت على ما يرام، وقد لاحظ تقلب أحوالي في الفترة الأخيرة، الحقيقة أنه

كان محق بما شعر به مثله مثل كل من سألني عن ذاك الشرود والتشتت الذي أعيشه، جرّاء ذاك الكابوس اللعين، غير أني لم أكن أودّ التحدث عن ذاك الأمر لأحد، وكنت دائما ما ألقي باللوم والأسباب على الحياة وضغوطات العمل، وغيرها من الأشياء التي يعاني منها أكثر من على هذه البسيطة، وبمثل ذلك أجبت الدكتور ديفيد الذي هز رأسه بطريقة غريبة، وكأنه يقول لي لم أصدقك، وعاد إلى صمته مرة أخرى، هنا أيقنت بأن الحديث لا يزال عالقا على ثغره، ولم ينجح باختيار مفتاح الحديث المناسب وبعد صمت مشابه للصمت الذي سبقه قال:

-هل سمعت بقصة تلك الفتاة التي تدعى سارة.

عرفت أنه يقصد تلك الفتاة التي من مملكة النرد، فهززت رأسي بحركة إيجاب وأنا أقول له:

- سمعت عنها، لقد مضى بضعة أشهر على تلك القصة.

قلت ذلك وأنا في حيرة واستغراب من العلاقة، بين هذا الغموض والحذر الذي بدا على الدكتور ديفيد ومن تدعى سارة.

غير أنه أردف قائلا:

- وأنا مثلك سمعت بما جرى مع تلك الفتاة، وما صنعته وما حدث معها، دون معرفتي للتفاصيل وصحتها، لكثرة الأخبار والمعلومات واختلافها، ولعدم معرفة الدوافع على الإقدام على مثل هكذا عمل، ودوافع من قاموا بعمل لا يمكن تخيله، وكل ما جرى وكل ما سمعنا به يغلفه غموض كبير، لا يزال يحيط بكواليس تلك القصة، وكأنها شيفرة يصعب فكها، أو لعلها معادلة رياضية مستحيلة الحل.

آثرت الصمت على أن أعلق على قصة ليس لدي أدنى اهتمام بها وبملابساتها، ولا حتى بتلك التي تدعى سارة، غير أن الدكتور ديفيد قرأ ملامحي وأفكاري، وقال:

-أعلم بأن ليس لديك أي فضول لمعرفة شيء عن تلك القصة، وأحداثها المبهمة، ولم تعيرها أي اهتمام، وكانت مجرد خبر عابر مرّ في حياتك وانتهى، أما أنا فلدي فضول جارف لمعرفة تفاصيل تلك الحادثة التي سببت لها مثل هكذا عمل يصعب للمرء تخيله، وفك طلاسم لغز لم يستطع كشفه أو الوصول إليه أي أحد، وكأنه لعنة وضعها سحرة وكهنة.

قلت للدكتور ديفيد وأنا أشعر بالاستغراب:

- ولكن نحن نعمل في مجال الكتابة والصحافة، ولسنا في سلك الشرطة والتحري عن الحقائق، وأعتقد بأن مثل هكذا أشياء

ومثل هكذا أمور تحدث وبكثرة على هذه الطريقة، وبالأخص في تلك البلاد، إذ يحدث بها ما هو أشنع وأبشع مما حدث ومما سمعنا عنه، هذا ما قرأته في الصحف والمجلات وما تناقلته الأخبار والمواقع.

إلا أن الدكتور ديفيد قاطع حديثي وهو يقول:

-أعلم ذلك يا سام، وأوافقك الرأي، غير أني لا أخفيك فقد كنت أفكر ومنذ سنوات بعمل كتابيّ عن تلك المملكة، أو أحداث جرت بها، لكثرة حوادثها وغرابة قصصها التي لا تنتهي، وما تثير في داخلي من فضول، وأظن أن هذه الحادثة مختلفة عمّا سواها، وتستحق البحث والكتابة عنها.

ليصمت قليلا وهو يأخذ أنفاسه، بينما هو يتنقل من حولي في المكتب وكأنه يعطني فسحة من الوقت لفهم ما يجري، ويعود مسترسلا في حديثه:

- سام سوف أكلفك بمهمة جمع كل ما يتعلق بالقصة وصاحبتها، منذ ولادتها إلى يوم الحادثة، سوف تسافر إلى مملكة النرد، وتحاول الوصول إلى كل مفاتيح تلك الحادثة وجمع كل المعلومات عنها، لقد اخترتك لهذه المهمة.

انفجرت ضاحكا، دون أن أشعر كيف خرجت تلك الضحكة

مني وبمثل هكذا ظروف، هذه الظروف التي لم أتخيلها على الإطلاق، كان ما قاله الدكتور ديفيد بمثابة مفاجأة من العيار الثقيل، بل لعلّها صدمة بكل ما تعنيه الكلمة.

أخذت أستفهم منه عن الأسباب التي جعلته يختارني تحديدا دون بقية زملائي لمثل هكذا مهمة، ولماذا أنا تحديداً.

غير أن أسبابه كانت كثيرة لمثل هكذا اختيار، وحتى أكون أنا المكلف لمثل هكذا عمل، أولها أنّي شاب ذكي وفطن، وصحفي جيد، وكاتب يشقّ طريقه بكتابة المقالات الرائعة، هذا على حدّ قوله، ومثل هكذا فرصة سوف تساعدني كثيرا في حياتي المهنية، وسوف تفتح لي آفاق النجاح في عالم الكتابة، ولربما سوف أستنبط من رحلتي هذه فكرة لفيلم سينمائي، أو فكرة لرواية سوف تصبح في يوم من الأيام رواية عالمية، وستترجم إلى عدة لغات، وأنا لا زلت في السابعة والعشرين من عمري، هذا السن الذي يعتبر كتلة متوهجة من الحماس والنشاط والنظرات المستقبلية، وإتقاني للغة أهل مملكة النرد سبب مقدم في جملة الأسباب، هذا غير أن أصولي الأولى وجذوري القديمة تعود إلى تلك المملكة.

السبب الأخير سبّب لديَ ردة فعل غريبة، ولا سيما عندما ذكرني الدكتور ديفيد بأصولي الأولى وجذوري القديمة، كنت

أظن أنّي مواطن مثل أي مواطن يعيش في هذه البلاد، لي من الحقوق مثلما عليّ من الواجبات، ولن أجد من يذكّرني بأصولي القديمة رغم أن سحنتي التي أورثتها لي والدتي، والتي تنتمي إلى سكان البلاد الأصليين واندماجي الكامل والمطلق في هذا المجتمع، سيكون رادع ومانع لكلّ من يفكر بالماضي.

ومن أين أنت؟

ومن أين جاء أجدادك؟

غير أنّي لا أعرف أي شيء عن تلك المملكة التي تدعى مملكة النرد، كل ما أعرفه عنها هو أن جدي خرج من تلك البلاد وهو شاب صغير، وعندما كانت المملكة موحدة وقبل أن تقسم إلى عدة دويلات، وعندما كانت المملكة غارقة بصراعات ونزاعات وحروب راح ضحيتها بشر كثر، ومن بينهم عائلة جدي كاملة وكأن هو الناجي الوحيد منها، فخرج ناقم حاقد على تلك البلاد وعلى ساستها المتناحرون على السلطة وعلى محتليها، فلم يزرع بنا بذور الانتماء والولاء إلى تلك الأرض، على العكس تماما كان يزرع بنا بذور الحقد والكراهية على أرض قتل بها أعز ما لديه، ودمّر بها أغلى ما يملك، فلم يحدثنا إلّا عن جرائمها وساستها المتغطرسين وخرابها الأول والأخير إلى أن توفى.

غير أن الدكتور ديفيد لم يهتم لما سمع وكأني كنت أتحدث

بشيء لا يعنيه، وهو يصف تلك البلاد بمادة أدبية دسمة، أستطيع أن أنهل من خلالها الخير الوفير، والذي سيعود عليّ بالنجاح والتفوق في الدرجة الأولى، وعلى الجريدة في الدرجة الثانية.

صمتّ دون أن أجد ما أتحدث به، أو أردّ عليه به، وكأن لساني قد شل وانعقد، وأنا أردد اسم مملكة النرد في سري عدة مرات، وكأني في حلم، بل وكأني في كابوس أشدّ بشاعة من ذاك الكابوس المرافق لي.

كيف سأذهب بقدماي هاتين إلى تلك البلاد التي قتلت أجدادي، وابتلعهم ترابها دون أي شفقة أو رفق.

وجدّي ووالدي اللذان فارقا الحياة وهما ناقمان على تلك البلاد، وقد أورثاني تلك النقمة وأوصياني ألّا أذهب إليها مهما حدث.

فماذا أقول لهما؟

وكيف يصف الدكتور ديفيد رحلتي إلى تلك البلاد على أنها فرصة ذهبية، ويجب عليّ أن أستغلها، وأن لا أخسرها أو أفرط بها، فالفرص من الأشياء البالغة الندرة في هذه الحياة، وإن أقبلت يجب عليك أن تغتنمها، وأن لا تفرط بها، لأنها لن تتكرر، أو تعود بسهولة في حال إدبارها.

خرجت من مبنى الجريدة، بعدما طلب مني الدكتور ديفيد أن أفكر مليّا وبتجرد، ووضع كل شيء جانباً، وأن أعود إليه بجواب نهائي في صباح الغد، وحينها راح يذكرني بأن الفرص في هذه الحياة أشبه ما تكون بالرصاصة التي تخرج من فوهة بندقية، فمجرد أن خرجت لا مجال لعودتها.

إلّا أني كنت مشوش ذهنيا ومرتبك، أشعر بالتيه والضياع، فوض من الحواس تدور في خلدي وتغزو رأسي، أفكر بحديث الدكتور ديفيد وهو يصف رحلتي إلى تلك البلاد الممزقة على أنها فرصة ذهبية، وأستطيع من خلالها استخراج مادة أدبية سيكون لها ثقل أدبي في المستقبل، سيضاف إلى تاريخي.

رغم أن كل المعطيات والدلائل لا تشير إلى حسن المغامرة وسلامة الخطوة في نظري، وكل ما سوف يجري سيكون أشبه لمضيعة للوقت، وصيد في الماء العكر.

كان خيالي يهيم في كل الاتجاهات، كلها ما عداي، أشعر بحيرة وقلق لا مثيل لهما على الإطلاق، ولم أمر بهما من قبل وبمثل هذه الحدة.

أترك كل شيء خلفي وأعود بنفسي إلى ضباب الذاكرة الكئيبة والحزينة، أفكر بوصية جدي لوالدي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكأنه حلم وأنا ذاك الطفل الصغير الذي يجلس بجانبه ويضغط

بأصابعه الصغيرة على يده، وأنا أستمع إليه وهو يوصي والدي بأن لا تطأ قدماه أرض تلك البلاد الملعونة.

وأعود إلى ذات الذاكرة الضبابية، وأستذكر كلمات والدي لي قبل وفاته، وهو يكرر ذات الوصية التي سمعتها فيما مضى من لسان جدي.

فيبقى ذلك الشعور الثقيل جاثم على صدري، ويوشك أن يقطع أنفاسي رويدا رويدا، مثلما يفعل بي ذاك الكابوس المزعج.

أهرب من كل هذا وذاك و أنا أردد كلمات الدكتور ديفيد المحفزة والمشجعة، ولكن بلاد مثل مملكة النرد وما عانته وما تعانيه إلى الآن لا يوجد شخص عاقل يأمل منها شيء أو يعول عليها بمستقبل واعد، حتى أهلها أظنهم لا يأملون منها شيء.

فكيف مني أنا من يبحث عن مجد بها!

فأي مجد هذا الذي سأستخرجه من أرض متعبة ومنهكة بكل ما تعنيه الكلمة!

وما أن وصلت إلى منزلي حتى وجدت نفسي أتجه إلى مكتبي، من دون وعي أو تخطيط لمثل هكذا خطوة، وجدت نفسي أغوص في المصادر والمراجع والمواقع وأغرق بها، تاركا كل شيء

خلف ظهري، وكل الكلمات التي كنت أحدث نفسي بها، وجد نفسي أرميها في بحر عميق الظلمات غير هذا البحر الذي أغوص به، وأبدأ برحلة من البحث العميق والمطول، بحث عنوانه مملكة النرد.

وكلما استخرجت من هذا البحر المظلم والعميق معلومة عن تلك البلاد الغريبة عني أقوم بتدوينها على الأوراق أمامي.

بحثت عن كل شيء له علاقة بمملكة النرد، ولأول مرة أفعل ما أفعله الآن، جذوري الأولى ومنبتي القديم، أرض الأجداد الذين خرجوا من تلك الديار، وهم يلعنوها ويلعنوا طواغيتها وكل من ساهم في خرابها ودمارها، وكأني أعود إلى تاريخ وزمن ظننت أني جعلته خلف ظهري ومن المستحيل العودة إليه، كنت كالذي يقوم بحفر قبور دفن أصحابها منذ زمن بعيد، أستخرج جثثهم وأمارس عليها عملية التحقيق والتمثيل.

كنت أرى أن العودة للتاريخ والماضي مهم، ولسبب بسيط وهو أن نتجنب الوقوع بالأخطاء التي سقط بها من سبقنا، لم أرَ التاريخ أبدا مادة نعود إليها للبحث عن الخلافات والنزاعات وإنما لنتجنب تلك الخلافات ومعالجتها.

وبعد ساعات طوال من العمل وجمع المعلومات وتدوينها عن بلدي الأم، والتي لم تكن تعني لي شيئا فيما مضى.

وبعد أن فرغت من عملية البحث واستخراج المعلومات بدأت بترتيب تلك المعلومات وقراءتها بصوت جهوري.

مملكة النرد:

أكثر سكان هذا العالم لم يسمعوا بهذا الاسم، وبهذه البلاد، لولا كثرة المجازر والويلات والكوارث التي حدثت وتحدث في تلك الأرض، ولولا ما تحتويه أرضها من خيرات وثروات.

هي بلاد شاسعة المساحة، إذا ما قورنت مع مساحة البلدان الأخرى، يحدها من الشرق دولة ميكافيل، ويطوقها من الغرب جبال ميتاف ودولة بروليتا، ومن الشمال بحر الإيغو الغنى بالثروات البحرية، ومن الجنوب تجمع قبائل السايدي بالإضافة إلى دولة سيان.

بها العديد من المدن التي تعيش في حالة من التفكك تتبع نظريا فقط إلى مملكة النرد، غير أنك إذا بحثت في القواسم المشتركة بين هذه المدن وسكانها، ستجد بأنهم يشتركون بأكثر من تسعين بالمئة من عوامل الارتباط ويختلفون في الباقي، على عكس الدول التي تتجمع وتتكتل على عشرة بالمئة فقط.

فتجد مدينة تنعم بحياة البذخ والأمان وأخريات تعيش تحت خط الفقر، المصحوب بالفوضى وانعدام الأمان، غير أنك سوف

تفاجأ عندما تكتشف بأن تلك البلاد المنهكة والمضطربة بلاد غنية جدا، بل لعلها الأغنى من بين الدول، كل ما تتخيله من لوازم الحياة العمرانية والتقدم والازدهار والمواد الأولية متوفرة على تلك الأرض.

ثروات بحرية هائلة، ثروات باطنية مخيفة بإمكانها أن تغذي العالم كله دون أن تنفذ، مزارع وبساتين وحقول قمح وأشجار تين وليمون وزيتون.

بالإضافة إلى ثروة حيوانية، وثروة سكانية لا يستهان بها.

ورغم كل ذلك تجد أن الفقر والجهل والتخلف يطال أكثر من سبعين بالمئة من السكان، وسوف تتفاجأ أو لربما سوف تصاب بالصدمة عندما تعرف أن تلك البلاد العملاقة ذات الثروات الكثيرة أكثر أراضيها تحت وصاية جيرانها ودول أخرى، حتى بلدي (آماريا) لها نفوذ في تلك البلاد على الرغم من المسافة الفاصلة ما بين دولتنا وتلك البلاد، إلا أن نفوذ (آماريا) يندرج تحت مسمى نفوذ اقتصادي وليس عسكري كحال الدول المجاورة لمملكة النرد وبعض الدول البعيدة عنها.

أي أن تلك المملكة شبه محتلة، دولة ميكافيل تسيطر على الأجزاء الشرقية من تلك البلاد، وتتحكم بمقدراتها رغم وجود سلطة نظرية لرئيسها هناك، ولكن السلطة الفعلية لدولة

ميكافيل، وفي المقابل لدولة بروليتا في الغرب ما لميكافيل في الشرق، أما الجنوب فيتقاسم السيطرة عليه قبائل السايدي ودولة سيان.

ليس ذلك فحسب بل إن تلك الدول تتحكم بمجرى الأنهار القادمة من الجنوب إلى الشمال فتعطش وتروي كما تشاء، ناهيك عن الصراعات والنزاعات وتصفية الحسابات التي بطلاها هما قبائل السايدي ودولة سيان وما من ضحايا سوى أهالي المنطقة الجنوبية، حتى بحر الإيغو الذي يعتبر مصدر رزق سكان الشمال أصبح يضيق عليهم على الرغم من اتساعه، فلكل دولة من تلك الدول ومن ضمنها دولتنا آماريا ودول أخرى، نصيب من ذلك الساحل الطويل.

كل هذا وأكثر يحدث في مملكة النرد، دون أي تحرك من رؤساءها ولا حتى أعوانهم ومساعديهم، على العكس فدائما ما يتآمرون على بعضهم البعض في إسقاط أحد وصعود آخر وبالتعاون مع دول أخرى، وما من ضحايا سوى الشعب الذي يقومون بسحب رغيف الخبز من يده، وممارسة كل أنواع الضغوط حتى يبقى هذا الشعب همه الوحيد هو ذلك الرغيف، وبالمقابل يبقون على مقاعدهم وتمتعهم بكل مزايا الحياة المذلة لرؤساء وأعوان تهان كرامة شعوبهم من غرباء.

هذه هي مملكة النرد تدفن أبناءها وهم أحياء!

تهين كرامتهم وتذلهم، وتجبرهم على كرهها، وعلى أن يكونوا أبناء عاقين لأب لا يتحمل مسؤوليته كما يجب!

مملكة النرد تحمل أهلها ما لا طاقة لهم به، مثلما حدث مع جدي.

مملكة النرد كالأم التي تفرق في معاملة أطفالها، تدلل هذا وتهمل ذاك!

مملكة النرد تعلمت أن تفرق، ولم تتعلم كيف تجمع!

هذه هي مملكة النرد وهكذا يعيش أهلها.

ابتسمت بعد إنهاء ما قرأته، دون أن أجد سبب لتلك الابتسامة، وكأني أقف فوق أشلاء وجثث الملايين وأبتسم.

لأعود من جديد لجمع أكبر عدد ممكن من المعلومات عن تلك البقعة من الأرض.



كانت الليلة الفائتة شاقة جدا وقصيرة جدا، لأنني كنت منهمك بعملية البحث والتنقيب في أرض الأجداد، ولأنني لم أبحث عن شيء بهذا الاهتمام كما كنت مهتم بهذه المسألة، وكانت قصيرة جدا لأني لم أشعر بساعاتها كيف مرت بهذه السرعة، حيث باغتني الصباح دون أن أشعر وهو يرسم خيوطه الأولى ويلون السماء بلونها القرمزي الفريد، دون أن آخذ قسط وفير من النوم، إذ لم أنام أكثر من ساعتين وعلى الرغم من قلة ساعات نومي إلا أن ذلك الكابوس البشع كان مصرا على زيارتي، وعلى أن يبقيني مستيقظا أنتظر اكتمال الصباح، وما إن اكتمل الصباح حتى توجهت إلى مبنى الجريدة، وبدلا من التوجه إلى مكتبي توجهت إلى مكتب الدكتور ديفيد الذي نهض من خلف مكتبه أول رؤيتي، فكانت أول كلمة أنطق بها هي:

- أنا موافق.

ضحك الدكتور ديفيد وهو يقول:

- على الأقل ألق عليّ تحية الصباح في البداية.

- ولكن أنت من قال لي أن الفرص إن ذهبت فمن الصعب أن تعود بذات الطريقة.

وضع يده على كتفي وهو يطبطب عليه وكأنه فخور بي، وبعد

أن عاد ليأخذ مكانه على أحد المقاعد، وهو يقول:

- هل فكرت جيدا يا سام، يهمني أن تكون متحمسا ومتلهف لما أنت مقدم عليه، ومؤمن بخطوتك القادمة، لأن الشغف بالحلم هو أحد أهم طرق النجاح، فعندما يمضي أحدنا إلى حلمه وهو مقتنع به ومتحمس له، وبداخله شغف كبير للوصول إلى النجاح والتفوق، فمن المؤكد بأنه سينجح، وعليك أن تدرك تمام الإدراك أن طريق النجاح وطريق الحلم لن يكون مغطى بسجادة حمراء وعلى جانبيها الأشجار والورود، وتسير عليها وأنت تستمع للموسيقى وتستمتع بزقزقة العصافير، وتشمّ أعبق الروائح.

طريق الحلم مليء بالعقبات والمطبات التي ستكون من صنع الحياة، ومثلها من صنع البشر، وخيبات الأمل، وساعات اليأس والشعور بالإحباط.

وكن على ثقة أن المصاعب والمتاعب تكبر كلما اتسعت أحلامك، فكلما كان حلمك كبير وهدفك عظيم فمتاعبك ستكون أكبر، فالهدف الصعب يحتاج لجهد أكبر وأعظم من الهدف السهل، فعلاقتنا بأحلامنا أشبه ما تكون بمعادلة رياضية تدعى التناسب الطردي فكل ما كبرت أحلامنا كبرت متاعبنا، وهنا تكمن المتعة، فعندما تصل إلى حلمك وهدفك ومبتغاك بعد طول معاناة

وألم، ستشعر بلذة النجاح والتفوق، وكأنك قد تسلقت جبل شامخ، فعندما تصل إلى قمته ستكون متعب ومنهك، وجسدك مليء بالخدوش والجروح، ولكنك وبذات الوقت ستنظر إلى أسفل المنحدر بابتسامة سوف تنسيك كل ما عانيته وكل ما مررت به في ذلك الطريق، ابتسامة ليس لها عنوان سوى ابتسامة النصر والنجاح.

والآن ماذا تقول؟

- متى السفر؟

- غدا صباحا، لقد رتبت لكل شيء، ولأني كنت على يقين بأنك ستوافق.

هذا الخبر نزل كالصاعقة على رأسي، لم أتخيل أن مثل هكذا رحلة مجهولة ستتم بهذه السرعة، غير أن ما أعلمه علم اليقين أن الأحلام لا تنتظر المتقاعسين ولا تحب من يؤجلها، ولا ترضى بالرضوخ لمن يهملها، ولربما يغتنم الحلم الذي تسعى أن تصل إليه شخص آخر لديه شغف أكبر من شغفك ويقدس حلمه أكثر مما تقدسه، وقتها سوف تصل إلى حلمك متأخر وبعد فوات الأوان، فالأحلام لا تنتظر من يستيقظ عند الظهيرة.

عدت إلى المنزل على عجلة من أمري، وعدت إلى ذات المكان

وذات الجلسة، وبدأت بعملية البحث عن الكنز المفقود والحلم الضائع، إرث الأجداد ومستقبل الأبناء، ولكن هذه المرة بدأت بالبحث عن صاحبة القصة التي تدعى سارة، والتي تنتمي إلى مدينة صغيرة اسمها سايكا في الجهة الشرقية من المملكة، وتبعد عن عاصمة المنطقة الشرقية ما يقارب مئة كيلو متر.

هذه الجهة من المملكة هادئة نسبيا إذا ما قورنت بالجهة الجنوبية، التي لا تلبث أن تهدأ بها الأمور حتى تشتعل مرة أخرى.

دولة ميكافيل لها سطوة كبيرة على تلك الجهة من البلاد، وغيرها من المعلومات التي أخذت مني جهد ووقت يقدر بساعات، وما إن انتهيت من عملية البحث حتى تذكرت صندوق جدي القديم، الذي لم يكن أحد يفتحه سواه، ولم يفتح منذ أن غادر جدي الحياة، لا أنا ولا حتى والدي كان لديه فضول لفتح ذلك الصندوق ومعرفة ما يحتويه، أما اليوم فكل شيء قد تغير، ويجب عليَ أن أبحث في كل شيء أعتقد بأنه سوف يساعدني في رحلتي القادمة، ولعلّ جدي قد احتفظ بشيء من تلك البلاد في ذلك الصندوق.

اتجهت إلى المكان الذي يقبع به ذلك الصندوق القديم، لأجده يحاكي الماضي أكثر من محاكاته للحاضر والمستقبل، إذ الغبار

والأتربة تملأ جوانبه، فهو لم يفتح ولم يهتم به أحد منذ أكثر من عشرين عام، حاولت تنظيفه وإزالة ما عليه من الغبار حتى يتسنى لي فتحه، وما إن فتحته حتى امتلأ المكان بعبق الماضي، ورائحة الأوراق القديمة التي أكلت السنون من ألوان صفحاتها البيضاء، فتحولت إلى صفراء مهترئة، وبالإضافة إلى مجموعة من الصور القديمة لرجال ونساء وأطفال، أجهلهم جميعا ما عدا شاب صغير يشبه جدي أظنه هو، وأظن أولئك المجهولين الذين في الصور ليسوا إلّا عائلته و أصدقائه الذين فقدهم.

تمكنت من معرفة أشياء لم أكن أعرفها من قبل، غير أن كل تلك المعرفة لم تكن بذات الأهمية، فتركت الصندوق على ما هو عليه بعدما أخذت منه بعض ما أحتاجه وعدت إلى ذات المكان لأواصل عملية بحثي من جديد.



وسنلتقي في ذات كتاب قرأته مسبقاً، أضعك في الصفحة الأولى وأضع نفسي في فهرسه، أبتلع الجمر وأنا أنتظرك لتصلي إلي، لنتجادل به إلى أن يرسل الفجر خيوطه الأولى، فأعترف لكِ بأني خسرت الجدال وفزت بك.

الرحيل

دائما ما تكون ساعة الرحيل صعبة ومؤلمة، فعند الرحيل تشعر وكأن شيء ثقيل جاثم على صدرك يعيق عملية التنفس، دون أن تعلم ما هو ذلك الشيء الذي يحبس أنفاسك ساعة ويسيل دموعك ساعة أخرى.

هذا كله يحدث في ساعات الرحيل الطبيعية

فكيف إذا كنت تريد الرحيل إلى المجهول!

كيف إذا كنت تريد الرحيل من أرض إلى أرض دون وجود أب يقوي من عزيمتك!

كيف يكون الرحيل من دون عواطف أم حزينة على فراق ولدها!

أي مصير مجهول ذاهب إليه!

أي مجد تسعى الوصول إليه!

أي حلم!

أي هدف!

ترى كيف ستكون أرض الأجداد اللذين خرجوا منها وهم حاقدون عليها!

و عن أي مجد يبحث الأحفاد في تلك الأرض!

اتجهت إلى المطار وأنا أودع البلاد التي ابتلع ترابها جسد جدي ووالدي ووالدتي، متجها إلى بلاد أخرى ابتلعت أجساد أجدادي وأحلامهم وذكرياتهم.

طوال الطريق وأنا افكر بهذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر، والتي تقبل كل التأويل، النجاح والفشل على حد سواء، هذا غير المجهول الذي أسير إليه في بلاد غريبة عني، حتى وإن كنت أتصل بها بجذوري، وأفترق عنها بالفروع والأغصان.

ولكن هل ستتعرف على تلك البلاد من جذوري!

هل ستحتضنني عندما تلقاني!

دائما ما كنت أسمع بأن الأغصان هي من تحنو على الجذور وتحتضنها، لم أسمع يوما بأن الجذور هي من تحنو على الأغصان ولكن هذه معادلة طبيعية، فترى من صاحب الفضل على من الجذور أم الأغصان؟

ولكن لولا الجذور لما كانت الأغصان ولما كانت الفروع.

يوشك الضعف والوهن أن يتسلل إلى داخلي، وأنا لا زلت هنا ولا زلت في بداية الطريق، بل لعلي لا زلت بالقسم الأيسر والأسهل من هذا الطريق، فأتذكر كلام جدي، وكيف وصل إلى هنا وكيف وصل إلى هذه البلاد وحيد ضعيف مسلوب الإرادة، لا يملك أي شيء في هذه الحياة، لا من يدعمه ولا من يقويه، قطع بحار وصحاري وجبال، تحمل كل تقلبات المناخ، وتضاريس الأرض و الحياة، رجل خسر كل مقومات الحياة، وكل ما يربط الإنسان بالأمل وهما الأرض والعائلة، خسر كل هؤلاء وكل شيء غير أنه لم يخسر شغفه بالحياة وبقى متمسكا بها، وبالأمل الضعيف لديه، كالذي يمسك بشعاع شمس الظهيرة وهو داخل غرفة مظلمة، ليس بها سوى ثقب صغير يعبر من خلاله النور.

يا ترى كم يوجد على هذه الأرض أشخاص عانوا كمعاناة جدي!؟

لعلهم كثر!

حين وصلت المطار كان الدكتور ديفيد ينتظرني هناك ليودعني ويقويني، فعدت لتذكر جدي من جديد وأنا أسأل نفسي هل يا ترى وجد من يودعه ويقويه؟

عرض عليّ الدكتور ديفيد أن يخبر السلطات بمهمتي هذه، لعلّ ذلك سيساعدني فيما أنا مقبل عليه، ويبعد عني متاعب المتطفلين، وعرض عليّ بطاقة ستكون كفيلة بإخراجي من أي مأزق قد أتعرض إليه أو يعترض طريقي، غير أنني رفضت جميع هذه العروض التي اقترحها عليّ الدكتور ديفيد، وأصريت على السفر بصفة مدني مجهول، فهذا كله سوف يساعدني بالتعامل مع الأشخاص هناك، ومهمتي تعتمد على محادثة الناس ومخالطتهم وكسب المعلومات الصحيحة عن تلك القصة، ولن يحدثوني بحرية دون ذلك، فالناس بطبيعتها تنفر عن كل ما هو رسمي أو جاء بطريقة رسمية، فكيف إذا كان الناس المعنيين بذلك هم أهالي مملكة النرد!

وعدت الدكتور ديفيد أن أوافيه بكل ما سيحدث معي من مستجدات، وبأنه سيكون أول شخص ألجأ إليه عندما تواجهني الصعاب.



بعد ساعات من السفر، وعدة تنقلات من مطار إلى آخر ومن بلد إلى أخرى، وصلت أخيرا إلى المنطقة الشرقية من مملكة النرد وعاصمتها مدينة سوسيا، وإلى مطارها الذي يحمل اسم الرجل الذي يحكم هذه الجهة من المملكة، وأينما ولّيت وجهي في أركان المطار أجد عدد من الصور على جدرانه لرجل تشعر أنه يحدق بك أنت شخصيا، وكل من ينظر إليه سوف يشعر بذات الشعور، أدركت حينها أن هذه الصور ما هي إلّا صور الرجل الذي يحكم هذه الجهة من المملكة، وما إن أصبحت خارج المطار حتى أوقفت سيارة، وطلبت من صاحبها أن يأخذني إلى وسط العاصمة ومركز المدينة، بعدما جلست في المقعد الخلفي، وأنا اتأمل الطريق وشوارع المدينة المسائية، بينما السيارة تسير بنا إلى وسط العاصمة غير أنّي صدمت لما رأيته في الطريق، في الحديقة والشارع الذي تسير به السيارة، والمدرسة والملعب والجامعة كل هذه تحمل اسم حاكم هذه الجهة من المملكة، وغير ذلك من المرافق العامة، على الرغم من أن كل المعلومات التي جمعتها وتوصلت إليها عن ذلك الرجل خالية تماما من الإنجازات الكبيرة، فكيف تسمى مرافق الدولة باسم شخص لم يقدم شيء لها، على العكس تماما ففي عهده تفاقمت الأمور سوءا، وازدادت سطوة الدول المتناحرة على هذه البلاد وهذه الجهة من المملكة، والحقيقة أنه ليس الوحيد فحكام المنطقة الجنوبية والشمالية والغربية من مملكة

النرد جميعهم يشتركون معه بهذه الصفة، وكأنهم قد اتفقوا فيما بينهم عليها، فتذكرت رئيس بلادي السابق، وكل ما حققه من إنجازات وكل ما قدمه للبلاد وتلك النقلة النوعية التي جعلت من بلادنا قوة عظيمة على هذه البسيطة، حتى الرئيس الحالي الذي سار على نهج من سبقه بطريق التقدم والتطور بكافة مجالات الحياة، غير أني لم أجد ولو مرفق واحد من مرافق الدولة يحمل اسم أي منهما، فأين هذا من ذاك وأين ذاك من هذا!

وبينما أنا غارق في تفكيري وتأملي، صاح صاحب السيارة قائلا:

- لقد وصلنا، نحن الآن في مركز العاصمة ووسط المدينة.

لأجد نفسي في وسط ساحة كبيرة، يتوسطها تمثال للرجل ذاته وهو يرفع يده وكأنه يلقي التحية على جماهيره أو يؤدي قسماً.

وأنا أدور حول نفسي أتأمل أرض الأجداد ومقبرتهم، وكأني عدت بالزمن إلى الوراء، وكأن عقارب الساعة عادت معي، وكأني في العصور الوسطى في هذه المدينة، وقد غابت شمس هذه المدينة، وأقبل الليل ليغطي وجه مدينة توّاقة للعيش في النور، والناس يسيرون من حولي على عجل بوجوه مكفهرّة، وكأنهم يحملون أثقال الجبال على ظهورهم، رفعت بصري إلى السماء الداكنة بعد أن غادرتها شمسها، وأخذت مكانها غيوم سوداء

أخذت تسير باتجاهات لا زلت أجهلها، وأخذت تتلبد حول بعضها البعض منذرة بقدوم المطر.

لم تمر سوى لحظات حتى فوجئت بوابل من المطر، الذي أثار فزع المارة من حولي وأخذتهم على حين غرّة، فذهبوا يجرون باتجاهات مختلفة، بعدما جلدتهم أمطار السماء، يبحثون عن ملجأ قريب يقيهم زخات المطر ويستأمنون به ريثما يتوقف.

وأنا الغريب عن هذا المكان أخذت أقلب ناظري بكل ما يحيط من حولي، عليّ أجد ملاذا لي، فوقع بصري على نور منبعث من مقهى صغير يضيع وسط الأبنية من حوله، فاتجهت مسرعا إلى ذاك المقهى، بعد أن بلّلت أمطار السماء ثيابي، والتي بدأت تقطر ماء، وما إن دخلت المقهى حتى وجدته مقهى ذو طابع تراثي، مقهى عتيق، كل ما به يوحي على أنه جاء من بعيد، يوحي أنه جاء من أعماق التاريخ، فكل ما به يحاكي القدم، جدرانه، إنارته، أثاثه، حتى الصور القديمة التي سكنت جدرانه، تقول أنها صور لأشخاص تدلّ ملامحهم على أنهم جاءوا من بعيد، وبأنهم أبطال من أبطال التاريخ لهذه البلاد، بالإضافة لصور قديمة لأحياء المملكة ومعالمها، بدت لي أجمل من كل ما شاهدت إلى الآن، ليس ذلك فحسب، فكل من يعمل في هذا المقهى يرتدي زي غريب يشبه زي أحد الشخصيات في الصور المعلقة على الجدران، وبداخل هذا المقهى يجلس أناس

بسطاء يتأملون الملكوت بتعب وصمت، ينفثون من دخان سجائرهم وهموم أرواحهم، ليملأ فضاء هذا المقهى الصغير بسحابة بيضاء وكأنها غيمة صيفية معلقة في كبد السماء.

طلبت سائل ساخن علّه يدفأ جوفي، بعدما أخذت مكاني في ركن من المقهى، وعدت من جديد أتأمل الحياة خارج زجاج المقهى المغطى بالبخار المنبعث من أفواه من فيه، وأنتظر ريثما يتوقف المطر لأرى ما سأفعله في ليلتي الأولى هنا، في ظل كل هذا الصمت المطبق من حولي، كان عليّ أن أسأل أحد هؤلاء عن مكان قريب أمضي به أيامي القادمة.

فكان على المقعد القريب مني رجل ثلاثيني يتأمل الملكوت مثلي ومثل كل من كان في المقهى، فقلت له:

- أعتذر عن المقاطعة أنا غريب عن هذه البلاد، وقد وصلت للتو وأبحث عن مكان أنام فيه لفترة وجيزة، وحبذا لو كان المكان قريب من هنا.

وكأن حديثي هذا قد أيقظه من ثباته، فاقترب الرجل بكرسيه حتى أصبح بمحاذاتي، وقال:

- هنالك غرفة في المبنى الذي أسكن به، سمعت من صاحبها أنها فرغت منذ عدة أيام، إن شئت نذهب سويا إلى هناك حال

توقف المطر.

ابتسمت للرجل ابتسامة رضا، وهززت رأسي كعلامة موافقة، ليكمل حديثه قائلا:

- أنا أدعى آدم، ولكن لم تقل لي ما هو اسمك ومن أي البلاد جئت؟

لا شك أن الحديث مع أشخاص غرباء لغريب مثلي، وكشف أسراره لهم يعتبر خطأ كبير، ولكن ثمة أشخاص لفرط سماحة وجوههم يدخلون قلبك سريعا، على الأقل ستشعر بأنهم لن يؤذوك ولن يستغلوك، وكان آدم أحد أولئك الأشخاص اللذين لن تتردد بالبوح لهم عن أي سؤال يوجهوه لك، فقلت له:

- أدعى سام، وجئت من جمهورية آماريا.

رحب بي الرجل وهو يبدي استغرابه لمجيئي إلى بلادهم، وترك تلك البلاد العظيمة، وهو يقول ممازحا:

- ما رأيك أن نتبادل الأدوار، أنت تبقى هنا وأنا أذهب إلى هناك.

غير أنه عاد ليحذرني من الذهاب إلى المدن الجنوبية في المملكة، فهي منطقة خطيرة، ودائما ما تكون ساحة حروب وصراعات.

أعلمته بمعرفتي بما قال، وأني هنا بمهمة صحفية، وهذه المهمة تدور في هذه الجهة من المملكة أي الجهة الشرقية، إلّا أن الرجل كان لديه فضول لمعرفة المهمة التي جئت من أجلها، وأخذ يستفهم عنها، وأنا بدوري لم أجد أي مانع لإخباره عن السبب الذي جئت من أجله، وبأني جئت إلى هنا للكتابة عن كل ما حدث مع فتاة من مدينة سايكا تدعى سارة، تغيرت ملامح الرجل وهو يردد اسم سارة، ومئات من إشارات التعجب المتبوعة بالاستفهام تعلو حاجبيه، وهو يتنهد تنهيدة حزن، ويقول:

- لا أخفيك بأن هنالك الكثير من هذه القصص تحدث في أرجاء المملكة، غير أن ما حدث مع سارة يعتبر من ضمن أغرب ما حدث، رغم معرفتي بقصص وأحداث أشد بشاعة مما حدث، ولو كنت أعرف شيئا عن تلك القصة وصاحبتها لما بخلت عليك بما أعرف، ولكن أظن بأنك ستجد ضالتك في مدينة سايكا، مدينة سارة منذ ولادتها حتى يوم الحادثة، وصاحب سيارة أجرة مثلي لن يستطيع أن يقدم لك شيء مما أنت مقدم عليه.

ولكن مثل هكذا شخصيات لا تستطيع التخلي عنهم ومفارقتهم، فقلت له:

- ولكنك تستطيع، سترافقني في صباح الغد إلى مدينة سايكا، وستخبرني عن تلك المدينة وأهلها حتى ولو بالقليل الذي تعرفه.

حاول آدم مقاطعتي، غير أني أكملت قائلا:

- ستذهب معي وسوف أعطيك ضعف غلتك التي تحصل عليها كل يوم، لقد قضي الأمر، والآن دعنا نذهب لقد توقف المطر، وكان نهاري شاق جدا وغدا لدينا ما هو أصعب، ويجب أن أحصل على قسط من الراحة.

خرجنا أنا وآدم من المقهى العتيق متوجهين إلى المبنى الذي يسكن به، وهناك التقينا بصاحب الغرفة الواقعة على سطح البناء، لم يأخذ الاتفاق وقتا طويلا، بضع كلمات وعلى أثرها اتفقنا على كل شيء.

كانت الغرفة أنيقة على الرغم من قدمها وهادئة ومريحة وهذا ما أحتاجه أنا، مجهزة بسرير وطاولة وخزانة ملابس مزروعة بالحائط، ومطبخ صغير وحمام مفصولان عن الغرفة بقطعة قماش طويلة، ونافذة تستطيع من خلالها أن ترى المدينة بأكملها.



الطريق إلى سايكا

في الصباح حيث بدأت الشمس ترسل خيوطها الأولى من فوق السحب الداكنة، التي عرقلت وصول الشمس ووصول أشعتها الذهبية باكرا، خرجت من المبنى، فإذا بآدم ينتظرني أمام سيارته وبيده منديل يزيل به قطرات الندى المتراصة على زجاج السيارة، والتي أخذت بالتلألأ بفعل سقوط أشعة الشمس عليها وانعكاسها.

كان آدم جاهزا كي ننطلق إلى مدينة سايكا التي تبعد عن العاصمة قرابة الثلاث ساعات، وما إن خرجنا من زحام العاصمة وضوضائها الذي ملأ الشوارع والأزقة حتى عمّ الهدوء وساد الصمت، فأخذ آدم يحدثني عن كل ما نراه في طريقنا ويعرفني عليه وكأنه دليل سياحي، يحدثني عن القرى والمعالم المنتشرة في الريف الشرقي الجميل المغطى بثوبه الأخضر والفلاحون متجهون إلى حقولهم.

على الرغم من كل ما رأيته من جمل الطبيعة فيما مضى وفي بلدان مختلفة، غير أني لم أستطع إلا أن أبدي إعجابي بهذا البساط الأخضر الواسع، بفعل حقول القمح الممتدة على امتداد البصر، والذي لا يعيقه سوى بعض القرى الصغيرة المتناثرة بإتقان، كما تتناثر الشامات في وجه فتاة حسناء ، وبالإضافة إلى

عنفات النفط المنشرة في أرجاء المكان من حولنا، إلا أن سام قاطع تأملي بهذا الإبداع الكوني، وهو يقول:

- انظر إلى عنفات النفط كم هي كثيرة، هذا غير العنفات الموجودة في المنطقة الجنوبية، والتي يفوق عددها عدد ما تراه الآن، ناهيك عن النفط والغاز في بحر الإيغو.

وأخذ يشير بسبابته إلى إحدى العنفات القريبة وهو يتابع حديثه:

- أترى تلك العنفة المميزة، نحن نسميها بالعنفة العملاقة، ونسمي البئر الجاثمة فوقه بالبئر المجنون، نعم هذا هو اسمه فهو مجنون بالفعل، وأطلق عليه هذا الاسم لأنه يضخ النفط دون الحاجة لعنفة تستخرجه، وعليه العديد من المراقبين مهمتهم فقط من أجل تنظيم ضخه، وليس ذلك فحسب سمعت أن النفط المستخرج منه يعتبر من أجود أنواع النفط في العالم.

- لا أخفيك يا آدم بأني على علم أن أرضكم غنية بالنفط وغيرها من الثروات، ولكن قرأت مرة وعندما كنت أبحث عن معلومات تخص مملكتكم أن النفط على وشك أن يضمحل، ربما سنوات أو عقود لا أعلم بالضبط.

صدم آدم لما سمعه وكأنه يسمعه للمرة الأولى، غير أنه لم يصدق أو لعله لا يريد أن يصدق أن يأتي يوم يضمحل فيه نفط بئرهم المجنون، وهو ينظر إليه بعيون حزينة ونظرات منكسرة، وحسرة ملأت قلبه.

فما كان مني وبعد كل ما رأيته إلا أن أخرجه من كل ما هو فيه من حزن وضيق، فتعمدت الانتقال إلى حديث آخر، وأنا أقول:

- ليس مهم، اليوم نحن في زمن الطاقة البديلة، وحتى وإن كانت لا تتوفر هنا فلربما لديكم مخزون يكفيكم لعقود من الزمن.

ابتسم آدم ابتسامة غريبة وكأنه يستهزأ بكلامي، ويقول لم تعالج الأمر كما يجب، وأردف قائلا والحزن يملئ عيناه:

- أترى كل هذه الآبار، وكل هذه العنفات، جميعها لا نصيب للجهة الشرقية من مملكة النرد منه سوى القليل فقط، والنسبة الأكبر من النفط لدولة ميكافيل، والتي تأخذه عن دين قديم أبّان الحرب التي كانت مشتعلة في هذه الجهة من المملكة، حتى أن هذه الآبار ليست تحت إدارة المملكة إنما تحت إدارة دولة ميكافيل وهي المسؤولة عن كل شيء هنا، هي التي تعمل والتي تستخرج، وهي من تعطي المملكة نسبتها وتصدر الباقي

لدولتها.

وراح يشير إلى بناء ضخم ومسيج، وعليه رقابة عالية، وهو يكمل حديثه:

- أترى ذلك المبنى، ذاك أشبه بمدينة متكاملة لمسؤولي دولة ميكافيل وجنودها، وهناك يوجد سجن به الكثير من أبناء المملكة المعارضين لسياسة ساسة الجهة الشرقية من المملكة والمعارضين لوجود دولة ميكافيل على أرضنا، وأظن لا يخفى عليك أن لدولة ميكافيل الكلمة الفصل في المنطقة الشرقية ومن ضمنها العاصمة سوسيا.

لم أستطع متابعة هذا الحديث مع آدم، أو حتى الدخول في التفاصيل، عندما لاحظت بأن الحزن والوجع، وقهر الرجال هو الذي يخرج من فمه وليس مجرد كلمات، ولا سيما عندما قال لي وهو يحاول أن ينهي الحديث:

-أرجوك كف عن هذا النوع من الأسئلة لدي زوجة وأطفال صغار ينتظرون عودتي، ولا معيل لهم غيري.

اكتفيت بتأمل القرى والمعالم التي تقع على محاذاة الطريق، والسؤال عن أسمائهن إلى أن وصلنا إلى مدينة سايكا الصغيرة، وما أن ترجلنا حتى بدأنا نسأل كل من نراه في طريقنا عن سارة

ومنزل سارة، غير أن الناس كانت تتبدل ملامحهم بمجرد سماعهم بهذا الاسم، فمنهم من كان ينظر إلينا بخوف وحذر، ومنهم من ينظر بكره وغضب، ومنهم من يهرب بعيدا عنّا دون أن يتفوه بأية كلمة أو يبدي أي انطباع، حتى أن أحدهم أخذ يشتمنا ويشتم سارة، وحاول الاعتداء علينا لولا تدخل آدم وهو يقول له (هذا الرجل من دولة ميكافيل)، فما كان منه سوى أن يهرب بعيدا.

أصبحت مهمتي صعبة جدا، بل لعلها مستعصية في ظل هذه التطورات، ولا سيما بعد نفور الناس منّا، وكأننا مصابون بمرض معدي، تنقله الرياح، بل لعلّ الحديث معنا هو من ينقله.

أمضينا ساعات من البحث والأسئلة ولكن دون جدوى، حتى عثرنا على طفل صغير أرشدنا إلى منزل سارة مقابل مبلغ مالي.

اتجهنا إلى أطراف المدينة حيث هناك منزل سارة، وما إن وصلنا هناك حتى رأينا المنزل الصغير وتبدو عليه آثار حريق وفقر وعوز، مكون من غرفتين لهما نافذتين تتطلّان على الشارع مباشرة، وأمام عتبة الباب تجلس فتاة تبدو وكأنها غير سوية، بثوبها الممزق البالي وشعرها المجعد، حافية القادمين، وتحتضن ساقاها إلى صدرها وتتأمل الأرض بعيون ثابتة ورأس يرتجف.

حاولت الاقتراب منها والتحدث إليها إلا أنها لم تعرني أيّ

اهتمام، وكأنها لا تكترث لوجودي.

مضت عدة ساعات وأنا على هذه الحالة دون أي فائدة تذكر، ودون أي مساعدة من المارة اللذين كانوا يهربون من السؤال كعادتهم.

كاد اليأس أن يتسلل إلى داخلي بعد هذه الساعات الخالية من أي بصيص نور أو فسحة أمل، حتى جاءني صوت امرأة عجوز من خلفي، وهي تقول:

- ماذا تريدان، وعن أي شيء تبحثان؟

تنفست الصعداء، وأخيرا جاء شخص ليسألني في مدينة ينفر أهلها من السؤال.

فقلت لها:

- سيدتي أنا أدعى سام من جمهورية آماريا، جئت إلى هنا بمهمة كتابية وهي جمع المعلومات والتفاصيل عن سارة، وعن الحادثة التي جرت لها.

تنهدت العجوز تنهيدة طويلة، وهي تتقدم نحوي وتغرس عصاها في التراب، مرت من أمامي دون أن تتلفظ بأي كلمة حتى دون أن تنظر في وجهي، حتى أخذت مكانها بجانب تلك

الفتاة الصامتة وبدأت بمداعبة شعرها المجعد بود، وكأنها تحاول طمأنتها وأنها بالقرب منها.

كنت أراقب المشهد من حولي دون أن أستطيع فهم شيء مما يجري أمامي، فكان لا بد لي أن أستفهم عمّا يحدث، ومن تكون هذه العجوز ومن هذه الفتاة التي بجانبها؟

إلّا أن العجوز لم تعر كلامي أي اهتمام وكأني أحدث نفسي، وكأنها لم تسمع ما قلته مواصلة مداعبة شعر الفتاة وهي تبتسم.

عندما يئست من العجوز وردها، نظرت إلى آدم علّه فهم شيء، أو استطاع فهم ما يجري، إلّا أنه رفع كفيه وكتفيه سويا بإشارة منه بأنه لم يفهم أي شيء مما جرى.

فكان لا بد لي من استمالة هذه العجوز، رغم معرفتي أن من الصعب استمالة العجائز لفارق العمر والخبرة في الحياة، فقلت لها:

- سيدتي، أرجوك إن كنت لا تودين إخباري بشيء عن سارة أو ما جرى معها فهذا من حقك، لا أنا ولا غيري يستطيع إجبارك على البوح بما لا تريدين التحدث به، ولكن حبذا لو ترشديني إلى شخص أستطيع من خلاله معرفة كل شيء عن سارة.

وبعد صمت مطبق قالت العجوز:

- وماذا ستفعل إذا عرفت كل شيء عن سارة؟

وهل عملك هذا سيعيد سارة؟

هل سينصف سارة؟

أخبرني ماذا عن سارة؟

حينها انتقلت عدوى الصمت من تلك العجوز لتصيبني، صمت كل شيء من حولنا، لم أكن أعلم بماذا سأجيبها، جميعنا كان يتأمل الفراغ، ذاك الفراغ الشاسع الخالي من أي شيء، لم يكن لدي جواب لتلك الأسئلة المحقة، ولم يكن أحد بمقدوره أن يكسر كل هذا الصمت المطبق سوى العجوز، فالذي يخلق حالة الصمت هو الوحيد القادر على كسرها، لتقول:

- ليس لديك جواب، أليس كذلك؟

ولكن أنا سأجيب ستحقق مجد شخصي، وستعود إلى بلادك وقد حققت ما جئت من أجله وسيكون لك اسم وشهرة في عملك وفي بلادك، أليس كذلك؟

للمرة الثانية استطاعت هذه العجوز أن تجعلني صامت ومن

دون جواب، ربما كانت محقة أن ما أسعى إليه هو مجد شخصي، ومحقة أكثر حين قالت وماذا عن سارة، فلذلك آثرت الصمت للمرة الثانية، حتى كسرته العجوز مرت أخرى وهي تقول:

- أمل.

اقتربت من العجوز مستفهما عن الاسم الذي ذكرته، ومن تكون صاحبته، وأين أجدها؟

غير أن خطواتي أثارت فزع الفتاة الصامتة وقلقها، فتراجعت إلى الخلف لتنهض العجوز وهي تتكأ على عصاها، وتتقدم باتجاهي وهي تقول:

- لن يخبرك أحد بالحقيقة عن سارة مثلما ستخبرك بها أمل، هي الوحيدة التي تعرف كل شيء عن سارة.

لمعت عيناي فرحا بعد أن أمسكت بطرف الخيط من قصة قطعت أميال وأميال لأجلها، فقلت للعجوز:

- ولكن من تكون أمل هذه وأين سأجدها؟

- أمل صديقة سارة المقربة، ومستودع أسرارها وكل ما تبحث عنه في قصتك هذه ستجد جوابه مع أمل.

ولكن إلى الآن لم تخبرني العجوز أين أجد أمل، وأين تقيم؟

غير أن العجوز عادت إلى تنهيدتها مرة أخرى، يا إلهي ما العلاقة التي تربط هؤلاء الناس بالتنهيدة، هل تحولت أوجاعهم وأحزانهم وكل ما يقلقهم إلى تنهيدة يطلقونها في الفضاء الواسع، ومن ثم يعودون لبلعها وكأنهم يبلعون أحزانهم وأوجاعهم من جديد بعد ما تخلصوا منهما للتو.

واصلت العجوز تنهيدتها وهي تطرق الأرض بعصاها، كمن يطرق باب الحياة وما من مجيب، وهي تقول:

- بعد الحادثة بشهر ذهبت أمل مع عائلتها إلى العاصمة، باعوا كل ما يملكونه هنا وسمعت أنهم أخذوا منزل في ضواحي العاصمة.

- وهل تعرفي عنوانها هناك أو تعرفي أحد بإمكانه إيصالنا إليها؟

- أمل وعائلتها قطعوا كل صلاتهم مع سكان هذه المدينة، وأظن تدهور حالة أمل بعد الذي جرى مع سارة جعل والدها يفكر بهذه الخطوة، فلا تتعب نفسك بالسؤال هنا، ولكن ما أعلمه أن أمل تدرس الطب في جامعة العاصمة، وإن أردت إيجادها فما عليك إلّا أن تبحث عنها هناك.

وما إن انتهت العجوز من حديثها حتى عادت إلى الفتاة الصامتة من جديد، وبدأت تداعب شعرها المجعد وتبتسم، دون التحدث بأي كلمة أخرى، حتى أننا اتجهنا إلى السيارة وقمنا بوداعها إلّا أنها لم تأبه لنا ولم تنظر إلينا.

غادرنا مدينة سايكا متجهين إلى العاصمة سوسيا بعد نهار شاق وطويل، وقد مالت شمس مملكة النرد على المغيب، أسندت رأسي على مقعد السيارة وأنا أفكر بيومي الذي مضى، وبغدي المرتقب وما سيحمله لي، وبتلك التي تدعى أمل.

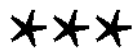
فقط تلك النسمات العليلة الرطبة القادمة من الحقول، والمحملة برائحة الأرض والمطر هي الوحيدة الكفيلة بقطع تفكيري بأمور الحياة ومشاكلها ومهام المستقبل، وتروي قلبي وعقلي على حد سواء، وأنا أتأمل الطريق والسهول الممتدة أمامي، وكأنها تلامس أطراف السماء ممتدة امتداد لا يعيق البصر والبصيرة، وكأنها في لحظة عناق مع الأفق، وقد صبغت الشمس المغادرة سماءها بمزيج من الألوان، تجعلك تشعر بالارتياح لمجرد النظر إليها، وهناك تجد سنابل القمح تعانق عنفات النفط، وعنفات النفط تحنو ظهرها لتقبّل سنابل القمح، بقيت على هذه الحالة إلى أن أرخى الليل سدوله وملأ الظلام هذا الريف الهادئ الجميل، ولا شيء يعكر صفو هذا الهدوء سوى هدير محرك السيارة، فاستسلم جسدي المتعب

لنداء عيناه مسترسلا بنوم عميق، دون أي إرادة مني، ولم ينقطع ذاك النوم وذلك الوصل إلّا على صوت آدم وهو يطرق مسامعي، ويده تهزّ كتفي، ليخبرني بأننا قد وصلنا.

فتحت عيناي وأخذت أتحسسهما بكلتا يداي، وكأنني في حلم، لم أصدق بأننا وصلنا بهذه السرعة، وبأنني كنت نائم طوال الطريق، شعرت أني لم أنم سوى دقائق معدودة.

صعدت إلى غرفتي بعدما افترقنا أنا وآدم أمام منزله، وقد اتفقت معه أن نلتقي في الصباح للذهاب إلى كلية الطب، للبحث عن تلك التي تدعى أمل.

غير أنّي وعندما دخلت الغرفة شعرت بأن كل ذاك الإرهاق والتعب قد زال، ربما نومي في السيارة في طريق العودة كان هو السبب، فكّرت أن أحادث الدكتور ديفيد قليلا لأخبره بمجريات اليوم، إلّا أنني تراجعت عن ذلك ولا سيما حينما تذكرت فارق التوقيت ما بين هنا وهناك، فما كان أمامي سوى عمل واحد أقوم به، وهو تدوين يومياتي وما جرى معي من لحظة وصولي إلى هذه البلاد حتى هذه اللحظة في هذه المملكة الغريبة الأطوار.



في اليوم التالي خرجت برفقة آدم إلى كلية الطب، وحين وصلنا تركني آدم وعاد إلى عمله، فما أبحث عنه لا يستطيع آدم مساعدتي به، وهو إيجاد أمل التي صورتها لي تلك العجوز بأنها مفتاح القصة التي أبحث بها، لذلك خرجت متحمس مليء بالنشاط والاندفاع، إلّا أن كل ذلك الاندفاع والنشاط بدأ بالتلاشي رويدا رويدا، ولا سيما بعد رؤية الأعداد الكبيرة من الطلبة، وعملية الدمج بين الجامعات زادت الأمور صعوبة، وأصبحت عملية البحث شاقة، وما زاد الأمور سوءا أكثر مما هي عليه هو عدم معرفة أي شيء عن أمل، ما عدا اسمها، حتى أني لا أعرف بأي مرحلة جامعية هي الآن.

ورغم كل تلك الصعوبات التي تغلفني والتي تحيط بي، إلّا أني بدأت أسأل أي شخص أصادفه عن فتاة اسمها أمل تدرس في كلية الطب.

لا شك بأن سؤال مثل هذا جعلني موضع سخرية لدى الكثير من الطلبة، ولأن اسم أمل متداول كثيرا، وتحمله العديد من الفتيات في هذه البلاد، إلا أني لم أكن أمتلك غير هذا المفتاح للولوج داخل هذا اللغز، والوصول إلى تلك الفتاة التي تدعى أمل.

في ظل هذه الظروف التعجيزية المحيطة بي تابعت البحث بذات الطريقة، دون أي كلل أو ملل، إلى أن انتهى العمل في الجامعة، وغادر جميع الطلبة ولم يبقَ أحد كي أسأله، فغادرت أنا الآخر.

بقيت على هذه الحالة ثلاثة أيام أخرج في الصباح إلى مبنى الجامعة للبحث عن أمل بين الطلبة، وعندما ينتهي العمل في الجامعة أخرج منها لأجوب شوارع مدينة اكتست جدرانها بثوب الحزن والتعب، ومن بعد ذلك أتجه إلى ذلك المقهى الصغير الذي جلست به أول وصولي إلى هذه البلاد، أتأمل جدرانه وأحاكي قدمه وأصالته، أراقب صور أبطاله القدامى، أصبحت أعرف أسماءهم شخصية شخصية، وأعرف متى غادروا الحياة وكيف كانت نهايتهم، وكل ما قدموه لأجل هذه البلاد، أرى في نظراتهم التي تبصر ما حلّ ببلادهم وما جرى لها وقد ذهبت تضحياتهم ومنجزاتهم أدراج الرياح، فتلمع أعينهم بالحسرة والحزن، ونظرات تجلد وتعاقب كل أبناء هذه البلاد لما خسروا ولما فرطوا من مجد، هم من عانوا كثيرا حتى أوصلوا البلاد إليه، نظرات أشبه بنظرات أب تعب وهو يربي ويعلم ويؤسس في أبنائه، وفي النهاية جاءوا عكس التوقعات، فذهب كل ما قدمه سدا.

وعندما أشعر بالتعب والضجر من الجلوس في ذاك المقهى،

ومن نظرات شخصيات تجلدني وأنا لا ذنب لي بكل ما حدث وبكل ما يحدث، أعود إلى غرفتي لأدون ما رأيت وما صنعت طوال اليوم.

وفي اليوم الرابع لم يحدث أي شيء يذكر، ولم يطرأ أي تغيير جديد، خرجت في الصباح إلى الجامعة أبحث عن تلك الفتاة كعادتي، وبعد أن أغلقت الجامعة أبوابها خرجت لأجوب الشوارع والأزقة، وعند الشعور بالتعب أتجه إلى ذلك المقهى العتيق أجالس صور وأرواح أبطاله القدامى التي تطوف في المكان وزواره، غير أني وعندما خرجت من المقهى غيرت طريق العودة حيث مررت بسوق المدينة القديم، وهناك حدث شيء غريب غيّر مجريات اليوم وكسر الروتين المعتاد، وذلك حين رأيت مجموعة من الجنود يسيرون في أسواق المدينة، ويقهقهون بأصوات مرتفعة متباهين بأنفسهم، ومضيقين على الباعة اللذين فرشوا أرزاقهم على طاولات خشبية، يأكلون من هنا ومن هناك، ويأخذون من هنا ومن هناك، دون دفع أي مقابل للباعة اللذين بدت ملامحهم مكسورة ومهزوزة، ودون أن يجرؤوا على فعل أي شيء يردع أولئك الجنود المتغطرسين، لا شيء سوى التنهيدة التي اعتدت على سماعها ورؤيتها تخرج من أفواههم، وليس ذلك فحسب بل كان أولئك الجنود يوجهون ألفاظ نابية للفتيات، ولا سبيل لتلك الفتيات إلّا

الهروب بعيد عنهم، إلّا أن أمر جلل قد حدث عندما حاول أحد الجنود مضايقة إحدى الفتيات، والتي ردت عليه بصفعة قوية طرحته أرضا على أثرها، فجنّ جنون أولئك الجنود، وحاولوا الإمساك بالفتاة، رغم وجود بعض الشبان اللذين حاولوا عرقلة طريقهم، هنا ازداد جنون هؤلاء الجنود، فألقوا بالقبض عليهم وعلى تلك الفتاة، هنا لم أستطع تمالك نفسي، وتحمل رؤية هذا المشهد أمامي، فتوجهت إلى الجندي الذي يمسك بالفتاة، وانهلت عليه بالضرب، حتى استطاعت الفتاة أن تفلت من بين يديه، لتحتمي خلف ظهري وهي ترتجف خوفا وذعرا، فهمست لها اهربي بعيدا بين الأزقّة ولن أدعهم يلحقوا بك.

استجابت الفتاة لما قلته على الفور، وذهبت مسرعة لتختفي بين أزقّة المدينة، والجنود ينظرون إليَ وعيونهم تقدح غضبا، وعلّهم يقولون لأنفسهم كيف تجرأ هذا الرجل على هذا الفعل، وكأنه يتحدانا، فهجموا عليّ هجمة رجل واحد، تركوا كل شيء واتجهوا نحوي، وانهالوا عليّ بالضرب، لم أكن أعلم من أين تأتي اللكمات ولا حتى بماذا كنت أضرب، كدت أن أفقد وعيي لولا وصول صوت جاء من بعيد، وعلى أثره توقفت أيديهم وأرجلهم عن الضرب، كان الصوت يقول: (اتركوه اتركوه، إنه من دولة آماريا)، كرر هذه الجملة عدة مرات وبذات النبرة العالية.

كان آدم هو صاحب ذاك الصوت، الذي أنقذني من هلاك محتّم، وبمجرد سماعهم كلامه توقفوا عن ضربي، وبدأوا يطالعون وجوه بعضهم بعض، وكأن ما قاله آدم أشبه ما يكون بصفعة قوية على خد رجل يشعر بالبرد، حينها تأكدوا من صحة ما قاله آدم، وبعد ذلك أخذوا يعتذرون لي ويتأسفون، ويعرضون عليّ خدماتهم العلاجية، إلّا أنّي رفضت كل عروضهم، وحينها تذكرت ما جرى معي مسبقا ومن أيام ليست ببعيدة، عندما كنت أنا وآدم في مدينة سايكا، وحين كنا نسأل عن منزل سارة، ومحاولة أحدهم الاعتداء علينا لولا تدخل أدم وهو يقول: هذا الرجل من دولة ميكافيل.

حينها وعلى أثر هذا الكلام هرب ذلك الرجل، وهنا ذات الطريقة مع الاختلاف في أسماء الدول، فما الذي يحدث!!

أخذني آدم إلى غرفتي وعمل على مداواة تلك اللكمات التي أصابتني، جميعها كانت لكمات طفيفة ما عدا واحدة في الجبين عولجت بضماد على مكان الجرح، حينها فقط سألت آدم عن أولئك الجنود، ومن يكونون ومن أعطاهم الحق أن يمارسوا كل ما قاموا به مع الباعة والنساء، غير أن آدم أطلق تنهيدة قوية تحرق كل ما يعترض طريقها، مثل تلك الزفرات التي يطلقها الشخص العاجز والمقهور في الوقت عينه، وبعدما انتهى من زفرته تلك، تلك الزفرة التي اعتدت عليها في هذه البلاد، أخبرني

بأن أولئك الجنود هم جنود دولة ميكافيل، هنا حدثت الصدمة الكبرى، صدمة فاقت كل الصدمات التي اعترضتني طيلة تواجدي في هذه البلاد، حتى أنها فاقت تلك الصدمة حينما كنّا أنا وآدم متجهين إلى مدينة سايكا، واعترض طريقنا جنود دولة ميكافيل، وهم يطلبون منّا أوراقنا الثبوتية ويسألوننا عن وجهتنا، ولماذا نحن ذاهبون إلى هناك، جنود بلاد أخرى يفعلون كل هذا دون أن يجرأ أحد على منعهم أو ردعهم، ينتهكون الحرمات، ويستبيحون الأرزاق بدم بارد دون أي محاسبة أو مساءلة، ويسحقون الضعفاء.

لا أعلم ما إذا كان كلامي قاسي على آدم الذي طأطأ رأسه لبضع ثواني دون أن يتفوه بكلمة واحدة، حتى عاد ليقول لي بعد برهة من الزمن:

- على ما يبدو أنك لم تجمع معلومات كافية عن مملكتنا ككل، وعن المنطقة الشرقية على وجه الخصوص أيّها الصحفي الشاب!

- هذا كله لا يهم ولكن أين حكومتكم، أين جنودكم، أين رئيسكم الذي بيديه أمور المنطقة الشرقية، أين كل هؤلاء من كل ما جرى ويجري في بلادكم؟

قلت هذا الكلام وأنا أصرخ في وجه آدم بنبرة عالية، وكأني أحمله وزر غيره، فما كان منه إلّا أن يطلق تلك التنهيدة

المعتادة، وهو يقول:

- جيشنا وحكومتنا ورئيسنا جميعهم هنا، نعيش على ذات الأرض وذات المكان، يعلمون بكل ما يحدث، أتظن أننا لم نخبرهم عمّا يحصل من مضايقات وتصرفات أبطالها جنود دولة ميكافيل، أخبرناهم بكل الانتهاكات التي نتعرض لها، غير أن أجوبتهم كانت موجعة أكثر بكثير من أعمال أولئك الغرباء، قالوا لنا يجب أن تتحملوا، نحن الآن في أزمة كبرى ولا نريد لعلاقاتنا مع دولة ميكافيل أن تتزعزع ،وبسبب تصرفات فردية تحدث ما بين الحين والآخر.

ذهب آدم بعد أن قال ما قاله، إلّا أنه خرج مكسور وذليل، لدرجة أنه كان يشعر بالخجل لوضع عينه في عيني، خرج وهو يشعر بالعار من شخص غريب جاء من بعيد ووقف بجانب فتاة من بلده وحماها، بينما هو كان عاجز على القيام بذلك، قال لي قبل أن يغلق باب الغرفة وينصرف:

- الآن تأكدت أن جذورك من هذه البلاد، لعلّ هنالك أشياء داخلية ووراثية، تنتقل من شخص إلى آخر، ولا يستطيع التأقلم والاندماج ولا حتى الجنسية أن تقضي عليها، جدك حاول أن يبعدك عن هذه الأرض وأن يكرهك بها، ومثل ذلك فعل أباك، غير أنهم ودون أن يشعروا كانوا يزرعوا بك قيم وتقاليد هذه

الأرض، التي تعلمها أجدادنا وطبقوها بحذافيرها، وفشلنا نحن في تطبيقها والمحافظة عليها، وأنت الشاب القادم من بعيد لا زلت متمسك بتلك القيم دون أن تشعر.

بقيت أفكر بكلام آدم، وبالشق الأخير منه، وأنا أسأل نفسي هل تنتقل القيم والعادات والتقاليد وراثيا أم ماذا؟

لا أعلم إن كان آدم ومن يشبهوه بهذا الجزء الشرقي من المملكة، يتحملون مسؤولية ما جرى أم من جلب هؤلاء الجنود إلى بلادهم من أجل مصالحهم!

على ما يبدو أن هذا الشعب ليس إلّا ضحية تراكم أخطاء، وسياسات دول كبرى وأخطاء حكامه، وهم أيضا يتحملون جزء من المسؤولية.

لا أعلم إن كنت قد أخطأت حين رفضت اقتراح الدكتور ديفيد، وهو أن يخبر إدارة الجامعة لتجمعني بتلك التي تدعى أمل، وبذلك سوف أنهي هذه المعضلة، غير أني لا أريد الوصول إلى ما أسعى إليه بهذه الطريقة، ولو كنت أفضل هذا الطريق لسلكته منذ البداية، أنا مؤمن بتلك العبارة التي تقول (إن ما تفعله بمفردك هو ما يصنعك).

فأنا على يقين أن هذا الروتين سوف يعرقل كل ما أسعى إليه،

وخصوصا إن التقيت بالفتاة بمساعدة جهات محلية، حينها أنا على يقين بأنها لن تخبرني بكل شيء عن سارة، ولا سيما بعد أن لاحظت عمق الفجوة واتساعها وانعدام الثقة بين الشعب والحكومة هنا.

عدت إلى مقعدي بعد أن غادر آدم وبدأت بكتابة أحداث يومي الذي مضى، فهذا اليوم كان مختلفا عما سبقه، جدت به أحداث غريبة، رغم أنها ليست بذات أهمية للقضية التي جئت من أجلها، وبعيدة كل البعد عن مهمتي وأحداثها ،إلّا أنها كانت مادة فريدة وحالة غريبة تستحق أن أكتب عنها، وأنا الذي كنت أكتب في أيامي السابقة عن أشياء ربما إذا قرأها أحد سيراها ساذجة وسخيفة، كتبت عن الطعام الذي تناولته والشراب الذي شربته، متى نمت ومتى استيقظت، حتى أني كتبت عن الهرّة التي تقف على باب المبنى دائما، كتبت عن المدينة وحواريها وعن ذاك المقهى العتيق وأشياء أخرى.

أفلا أكتب عما جرى في السوق القديم!

لم تمض سوى ساعات حتى امتلأت المدينة ضجيج وضوضاء لم أسمعه من قبل، وما أن انقطع الضجيج، حتى بدأت أسمع أصوات إطلاق نار يملأ المدينة، وكأنها تحولت لساحة معركة، على أثر ذلك كله ففي ظل هذا التحول المفاجئ انطفأ النور

عن المدينة كلها وساد الظلام، نهضت من مقعدي واقتربت من النافذة علّي أرى ما يحدث، غير أن الظلام كان دامس ولم أستطع رؤية أي شيء، ما عدا الضوء المنبعث من أفواه البنادق، وسماع أصوات وحركات أقدام تجري باتجاهات مختلفة، لم أكن أفهم ما يحدث من حولي، وما الذي يحدث داخل هذه المدينة، هل دخلت بحرب مع دولة أخرى أم ماذا؟

لم تمر سوى بضع دقائق حتى بدأ باب غرفتي يطرق وبقوة، وكأن من يطرقه يهرب من العالم إلي، لم أستطع سماع إلّا لهاثه المتعالي، اقتربت من الباب بحذر، فعرفت أن آدم هو الطارق وما إن فتحت الباب حتى أخذني من يدي، وبدأ يجرّني خلفه سريعا دون أن يقول أكثر من كلمة بسرعة بسرعة، انتهى بنا المطاف في منزل آدم، وفي غرفة صغيرة، أعتقد أنها غرفة أطفاله، كانت عائلة آدم كلها مجتمعة بهذه الغرفة، زوجته جالسة على السرير وعلى جانبيها طفل وطفلة، كان الطفل في حالة سكون وهو يلقي برأسه على صدر أمه، ويحدق في الأرض بصمت وعيون ثابتة، أما الطفلة فقد كانت تبكي بصمت وبصوت منخفض ومكبوت، بينما أمها تحاول تهدئتها وطمأنتها.

لا أعلم كيف يستطيع الإنسان البكاء بصمت وبصوت مكبوت، فما فائدة البكاء إذا لم تدوِ صرخاته عاليا، كيف يستطيع شخص بالغ أن يكبت بكائه ويخفي دموعه ويكتم صوته حتى

يستطيع الأطفال فعل ذلك!

آثرت الصمت وأنا أراقب من حولي، دون أن أقول شيء، ودون أن أسأل لماذا أنا هنا، حتى كسر آدم حاجز الصمت وهو يقول:

- كان لا بد أن تغادر غرفتك، فغرفتك مطلة على الشارع، ولا يفصلها عنه سوى جدار واحد، نحن هنا بأمان في هذه الغرفة البعيدة عن الشارع، وفي حال تعرض المبنى لإطلاق ناري نكون هنا بمأمن.

صمت آدم ثم أردف قائلا:

- على ما يبدو أنها المرة الأولى التي تسمع بها أصوات إطلاق النار هنا، أما نحن ربما اعتدنا عليه، فمثل هذا يحدث ما بين الحين والآخر.

- ومن كان يطلق الرصاص، وبين من ومن، حرب، عصابات؟

هذا ما قلته، فما كان من آدم إلّا أن يقول:

- لا هذا ولا ذاك، أحيانا تكون بين جيش المملكة الشرقية وثوارها، وأحيانا أخرى بين ثوارها وجنود ميكافيل، ربما تسأل نفسك من أين يخرج ثوار المملكة وماذا يريدون؟

أما من أين يخرجون فلا أحد يعلم، ربما يعيشون في وسطنا

أما ماذا يريدون، فما أنا متأكد منه بأنهم لا يريدون رئيس المنطقة الشرقية الحالي وحكومته، ولا يريدون أي وجود لجنود ميكافيل في بلادنا.

فقلت له علّي أستطيع فهم ما يجري من حولي أكثر:

- دعنا نسمع الإذاعة والأخبار القادمة منها، علّنا نفهم ما الذي يحصل في الخارج وما الذي يجري الآن؟

قال آدم:

- وما الفائدة من الأخبار ونحن على أرض الواقع؟

- نعم نحن على أرض الواقع ولكننا لسنا في قلب الحدث.

- ومع ذلك لا فائدة أيها الصحفي، لأنك ستجد الأخبار وكعادتها مقسومة إلى قسمين، أخبار تذاع من خارج الجهة الشرقية من المملكة و سوف تصور الحياة هنا على أنها جحيم، وأخبار تذاع من داخل الجهة الشرقية من المملكة وستصور لك أننا نعيش في النعيم، ولم يحدث أي شيء على الإطلاق، ونحن لا نعلم أين موجودين في الجحيم أم في النعيم؟

وما إن مرت بضع دقائق حتى توقف صوت الرصاص، وعمّ السكون أرجاء المدينة، سكون لا يعكّر صفوه سوى أصوات أنفاسنا، ولم يقطعه إلّا صوت طفولي أظنه صوت طفل آدم يحدث أبيه قائلا:

- أبتِ، أخبرني يا أبتِ ما ذنب مدينتنا حتى تبتلى بحماقات هؤلاء البشر؟

ما ذنب أبنيتنا الشامخة حتى تهدم؟

ما ذنب قلعتها العتيقة حتى تسلب؟

ما ذنب بيوتها القديمة حتى تهجر؟

ما ذنب حجارتها وطرقاتها وأرصفتها؟

أرجوك أن تخبرني يا أبتِ؟

- يا بني لا تخشى على المدينة، ستبنى من جديد وسيبقى اسمها خالد أبد الدهر، نحن من سيرحل يا بني وكل من تسبب في خراب هذه المدينة، وتبقى المدينة لأن المدن لا ترحل يا بني.

- إذا ليس للمدينة ذنب يا أبتِ؟

- بالطبع يا بني لا ذنب للمدينة، الذنب ذنبنا نحن ومن تآمر

عليها، إذ كنّا نحن أسوأ جيل يمر على المدينة.

كنت أصغي جيدا للحديث الذي دار بين آدم وطفله، أسئلة الطفل كانت أكبر من عمره بكثير، وكلماته كانت صعبة على أن يفهمها رجل بالغ، فكيف تخرج من طفل أظنه لم يتجاوز الثامنة من عمره!

أنا مؤمن أن المواقف الصعبة والأزمات المريرة تخرج جيل قوي، يستطيع قراءة الحياة جيدا وفهم كل ما يجري من حوله، تلك الأزمات والمواقف قادرة على إخراج جيل يتجاوز سنين عمره بأعوام، يتجاوز عمره بأفكاره وأحلامه، وحتى في رؤيته للمستقبل، كنت أسمع الحديث الذي دار بين آدم وطفله وأنا أسأل نفسي، يا ترى هل سأل جدي والده هذه الأسئلة في مثل هكذا مواقف؟

مضت بضع ساعات وتوقف إطلاق النار، وقد عمّ صمت مريب ومخيف في الخارج، صمت يشبه السكون الذي يسبق العاصفة، ولكن هذه المرة لم تأت العاصفة فبقى السكون والصمت هو صاحب الحضور القوي وسيد الموقف، حينها قال آدم:

- على ما يبدو انتهت حفلتهم، وعاد كل منهم منتشي بنصره.

حينها وعلى أثر هذه الكلمات ودعت آدم وعائلته، وقبّلت ذاك

الطفل وعدت إلى غرفتي، عدت دون أن أفهم شيء، أو لعلّي لم أكن أريد فهم كل الأشياء الغريبة التي أشاهدها والتي تصادفني في هذه البلاد، ولكن كان علي أن أنقل هذا الشق الأخير من هذا المساء إلى مدونتي الشخصية، وإضافتها إلى يومياتي، إلّا أني لم أجد سبيلا للكتابة، لم أكن قادرا على الكتابة لسبب خفي أجهله، فدائما ما تحدث معي مثل هكذا أشياء فأكون عاجزا عن كتابة جملة مفيدة، فبين القلم والنفس الداخلية ترابط كبير، ولن يخطّ القلم حروفه ولن تخرج الكلمات ولن تصدح القريحة بألحان اللغة ومكنونات النفس، إلّا في حال تهيأت لها الأجواء والظروف، رغم أن كل ما أقوم به وكل ما هو مطلوب مني تدوين ما حدث وإضافته إلى يومياتي، دون أي زيادة أو إبداع، ورغم كل ذلك كنت عاجزا عن الكتابة.

دخلت سريري بعد أن يئست من القيام بأي عمل غير النوم، ولكن حتى النوم كان حلم صعب المنال، فإغماض العينين وأنت في سريرك لا يعني أنك نائم، هذا كله يعني أنك تجاهد للوصول والهروب إلى النوم في مجموعة محاولات فاشلة، وإنك متواجد في عالم يشبه كل شيء إلا عالم النوم، فمحاولاتك وأنت تجبر نفسك وترغمها على النوم أصعب بكثير من محاولتك وأنت تقنع نفسك بالانتحار.

في ظل هذه الأجواء المحيطة بي، وفي حالة السكون التي كنت

أؤدّيها، طرق الباب ثلاث مرات متتالية وتوقف، على أثرها فتحت عيناي وبشكل مفاجئ، للوهلة الأولى زار مخيلتي آدم ظنّا مني بأنه هو الطارق، نهضت من على السرير وأنا أفكر بالسبب الذي جاء من أجله آدم، ولكن لماذا عليّ التفكير في أمر سأعرف جوابه بعد بضع ثواني، وما إن فتحت الباب حتى دخل الغرفة ثلاث شبان مقنعين، وقد أبرزوا لي أوراق ثبوتية تدل على أنهم يعملون في سلك الدولة، قاموا بتفتيش الغرفة بشكل عشوائي وفوضوي، وبعدها طلبوا مني مرافقتهم لاستكمال بعض الإجراءات.

خرجت معهم بهدوء ودون أي معارضة، رغم أنّي شعرت بالاضطراب والخوف في حينها، وعندما وصلنا بالقرب من باب بيت آدم، طلبت منهم إخباره بما جرى، غير أنهم منعوني من ذلك وهم يقولون:

- لن تتأخر ستعود قبل أن يستيقظ صديقك.

وما إن أصبحت داخل السيارة حتى قاموا بوضع قطعة قماش على عيناي، على أثرها لم أعد أبصر، كانت تسير السيارة نحو المجهول، دون أن أعلم أين ستكون وجهتي، وإلى أين سيأخذونني، كان كل من في السيارة يمارس طقس الصمت، حتى أنهم لم يتحدثوا فيما بينهم، وبعد أقل من ساعة من

الزمن توقفت السيارة وأطفأ المحرك، قادوني داخل مبنى، صعدت أدراج ونزلت أدراج ولا زلت لا أبصر شيء، حتى أزالوا تلك القطعة من القماش عن عيناي لأجد نفسي في غرفة ليست إلا زنزانة صغيرة في السجن، حينها فقط وجهت إليهم مجموعة من الأسئلة المتراشقة، ماذا تريدون مني، لماذا جئتم بي إلى هنا، ماذا فعلت؟

ولكن ورغم تلك الأسئلة التي كانت بحاجة إلى جواب، إلّا أنهم لم يتفوهوا بأية كلمة، وكأنهم لم يسمعوا كل ما قلته، فقط أغلقوا علي الباب بإحكام واختفوا بعدها، لم أكن أشعر بالخوف بقدر ما كنت أشعر بالبرد، إلّا أن ذلك البرد تحول إلى خوف، ولا سيما بعد أن أصبحت أسمع مجموعة من الأصوات، والتي لا تدلّ إلّا على أشخاص يعذبون ويضربون، صرخاتهم كانت موجعة جدا، وكانت كفيلة لتخيل مدى العذاب الذي يلحق بهم، والتنكيل الذي يتعرضون له، ناهيك عن الألفاظ النابية التي كانت توجه لهم، لا أعلم ما الذي صنعوه هؤلاء المعذبون حتى يذوقوا هذا النوع من العذاب، لم أستطع تخيل أي جريمة فعلوها، أو أي ذنب اقترفوه حتى يذوقوا هذا الكم من العذاب.

كانت الساعات تمر ببطيء قاتل دون أن يطرأ أي تغيير، وكأنك تراقب ساعة رملية، لا شيء تغير سوى تغير أصوات المعذبين

وإبدالهم بغيرهم، وأنا أسأل نفسي هل سيكون مصيري كمصير هؤلاء وهل ستخرج صرخاتي كصرخات هؤلاء، كان مجرد سماع هذه الصرخات المؤلمة يعتبر نوع من أنواع العذاب، غير أني لا أذكر أني صرخت من قبل أو لعلّ الذاكرة لم تسعفني كي أتذكر ما إذا صرخت من قبل أم لا!!!

ربما لن أصرخ، على الأقل لن أصرخ هنا وفي هذا المكان، هم سيفكرون بدولتي وبالمشاكل التي ستلحق بهم لو أصابني أي مكروه، ولن يستطيعوا معاملتي بمثل هذه الطريقة.

كنت أفكر بشكل عشوائي تفكير فوضوي يهيم في كل الاتجاهات، فكرت بنور الشمس الذي لم يزر هذه الغرفة الرطبة بعد، حينها أدركت أنني أقبع تحت الأرض، فكرت بجدي وكلامه وتحذيره لي من الذهاب إلى هذه البلاد، ووحشيتها، وعن تلك الصعاب التي قد تعترضني لو ذهبت إليها.

يا إلهي هل سيكون مصيري كمصير أجدادي اللذين لقوا حتفهم في هذه البلاد، أم سيكون كمصير جدي حين نجا منها، فكرت بوالدي ووالدتي، وفكرت بنفسي وبأحلامي التي كنت أنسجها في مخيلتي، فكرت برحلتي إلى هنا، وفكرت بآدم، حتى أنني فكرت بطفله الذي يسبق عمره بأشواط، فكرت بتلك

العجوز وبتيك الفتاة الغير سوية، فكرت بسارة وبتلك التي تدعى أمل، وفكرت بذلك الكابوس الذي لطالما رافقني في نومي، ولكن يا إلهي ماذا عن ذلك الكابوس الذي غادرني منذ أن وطئت قدماي هذه البلاد!!

فكرت بالحب، ذلك الحب الذي مارسته عدة مرات إلّا أنني لم أعيشه، فأنا قادم من بلاد يمارس فيها الحب بين أي شاب وفتاة وبعدها يمضي كل واحد منهم في سبيله، وكأنها صفقة وانتهت، فكرت بالمدينة وأزقتها الملتوية وبذلك المقهى العتيق وصور أصحابه التي سكنت الجدران، فكرت كثيرا وكل تفكيري كان منصب على هذه البلاد وعلى أيامي الأخيرة بها وكأن حياتي كلها لم يكن بها شيء سوى هذه البلاد، وما جرى معي بها. ففي السجن هنالك متسع من الوقت للتفكير بكل شيء والعودة إلى الماضي، سيمر شريط حياتك أمامك وبأدق تفاصيله، فالسجن هو المكان الوحيد الذي لا وجود للمستقبل به، سيكون تفكيرك منصب على ماضيك وحاضرك فقط.

الشعور الوحيد الذي يطغي على التفكير والنفس الداخلية هو الشعور بالوحدة، لا عائلة، لا أصدقاء، لا وطن، كنت أنا ذاك الشخص الذي تسبقه كل تلك اللاءات، فكم أنا وحيد وكم أنا منسي في هذا المكان تحت الأرض.

في خضم كل هذه الأفكار والوقوف أمام شريط الماضي الطويل، دخل الزنزانة رجلان، كانا يتحدثان معي بطريقة لطيفة بعدما أحضرا لي شيء أشربه، حينها بدأت الأسئلة الهادئة، متى وصلت، ما هدفك من الزيارة، متى تعود؟

كانت أسئلتهم غريبة، فمعظم الأجوبة كان بمقدورهم أن يحصلوا عليها دون الرجوع إلي، غير أني لم أكن أودّ ممارسة أسلوب المراوغة الذي يتّبعوه معي، فأخبرتهم عن كل شيء وعن أسباب الزيارة ما عدا شيئين، أولهما جذوري القديمة وبأن أصولي من مملكة النرد، كنت أخشى في هذه المعلومة أن يكون مصيري كمصير أصحاب الصرخات، والشيء الثاني الذي لم أخبرهم عنه هي تلك التي تدعى أمل، بسبب خوفي من أن يقطعوا عليّ طريق الوصول إليها.

فما كانت سوى لحظات حتى أخلوا سبيلي، ليس ذلك فحسب بل إنهم أوصلوني إلى باب المبنى الذي أسكنه بعدما اعتذروا مني، ولكن ماذا عن أصحاب الصرخات التي كانت تخرج، هل اعتذر منهم أحد!

وهل يكفي الاعتذار في مثل هكذا حالات!

سألت نفسي هذه الأسئلة وأنا متجه إلى غرفتي وأنا أفكر بأولئك المعذبون، ولكن الغريب في الأمر ذلك المحقق الذي كان

يسألني، لكنته لا تدلّ على أنه من المنطقة الشرقية من مملكة النرد، بل من دولة ميكافيل، طريقته في الحديث تشبه طريقة أولئك الجنود اللذين رأيتهم في السوق يوم حادثة الأمس.

ولكن هل وصلوا إلى هذا الحد!

عندما أصبحت في الغرفة كنا لا نزال في الصباح فكرت بالخروج والتوجه إلى كلية الطب كعادتي وإكمال عملية البحث، لولا قدوم آدم الذي لم يكن لديه أي معرفة بما حدث، وقد منعني من الخروج قائلا:

- إن الأجواء لا تساعد على ذلك بعد ليل مشحون، فالناس في حالة ترقب وحذر، ولن تجد أحد، ستجد الجامعة فارغة ولا وجود للطلبة، وستجد الشوارع التي كنت تسير بها شاحبة الوجه ولا وجود لأي شيء من ملامح الحياة، حتى المقهى الذي اعتدت على أن ترتاده ستجده فارغ، وستجد نفسك وحيد بصحبة الماضي وصور شخصيات قد قضت نحبها.

كان آدم محقا بكل ما قاله، ولا سيما بعدما رأيت الحياة من خلف النافذة، كانت شبه حياة، وكانت الشوارع شبه خالية والمدينة تعيش نصف حياة، حركة السير شبه معدومة وأكثر المحال التجارية كانت مغلقة، لم أنم بحياتي كلها مثلما نمت في هذا اليوم، كنت أنام وأستيقظ، أكتب قليلا ثم أراقب الحياة

الخارجية وأعود لأنام مرة أخرى، شعرت بشوق جارف يقودني لشوارع المدينة ومقهاها، لم أكن لأكتشفه لولا هذا اليوم، كنت أشعر أني قد أضعت أو فقدت شيئا، كنت بحاجة إلى شيء اعتدت على وجوده في حياتي، ذلك الشيء الذي كنت أسميه روتين ممل، أصبح اليوم حاجة ملحّة، كنت أشتاق لتلك الصور وشخصياتها، وفي نفسي حاجة كبرى لتأملها وفهم خبايا العيون وتجاعيد الوجوه، كنت بحاجة للسير في أحياء المدينة الحزينة وأزقتها الملتوية، كل هذه الأمور كانت تناديني وتجذبني إليها رغما عن نفسي، وعلى الرغم مما تعرضت له من المتاعب في تلك الغرفة الرطبة ليلة البارحة، وأنا أسأل نفسي:

- أتراني تعلقت بهذه المدينة!

أتراها سحرتني بحزن عينيها!

أتراها أغوتني بجمال مفاتنها!

أتراها ستبتلعني مثلما ابتلعت أجدادي!

أتراني أحببتها بعد كره!

وما أجمل الحب بعد كره!

لا، لن يكون هذا، سينتهي كل شيء أعود إلى بلادي التي كبرت

بها وترعرعت بها وتعلمت بها، وكانت بها أولى نزواتي وأولى إنجازاتي، سوف أعود وأهديها إنجازي ونجاحي لأنها تستحقه، سوف ينتهي كل شيء وأعود.

***

في الأمس كنت أنتظر الصباح بفارغ الصبر حتى أتوجه إلى كلية الطب، وبذل كل ما أستطيع حتى أعثر على أمل تلك، وأنهي كل شيء وأعود إلى عالمي الأول، وبلدي التي كبرت بها، ولكن عند الصبح تغير كل شيء، وبدل من التوجه إلى كلية الطب اتجهت إلى المقهى العتيق، ذهبت إلى هناك دون أن أدري ودون أن أخطط لذلك، وجدت نفسي أقف في المقهى أتأمل الصور المعلقة على جدرانه وأنا مبتسم وسعيد بذلك، وكأني التقيت بحبيب بعد طول غياب، لم أشعر بقدماي كيف أخذاني إلى هناك، كأن شيء أشبه بمغناطيس يشدني إلى هناك، كان ذلك المقهى وما فيه بمثابة المغناطيس وأنا لم أكن سوى مجرد قطعة حديد، لا تملك من أمرها شيء، هي فقط تسير إلى قدرها، وإلى الحقل الذي رسم لها.

خرجت من المقهى متجه إلى الجامعة، وبعدما هدأ شيء خفي داخل روحي واكتسى بالرضا، فلم يعد أمامي سوى التركيز

بالبحث عن تلك الفتاة، وما إن وصلت الجامعة حتى بدأت بالسؤال بين جموع الطلبة عن تلك الفتاة، كنت أتنقل بحرية نتيجة قلة عدد الطلبة بعد تلك الأمسية الحذرة، ولربما لا زال الحذر سيد الموقف، ولكن كل محاولاتي كانت محاولات فاشلة، لم يتعرف أحد على صاحبة الاسم الذي أبحث عنه، بقيت عدة ساعات على هذه الحالة دون أي نتيجة تذكر، حتى أتعبتني قدماي فجلست على أحد المقاعد الموزعة في مبنى الجامعة، أتأمل الطلبة من حولي وأنا أحدث نفسي، لربما كانت أمل بين هذه المجموعة أو تلك المجموعة، لعلها هذه الفتاة أو تلك، ولعلي كنت قريبا منها حينما كنت أسأل عنها، حاولت تخيلها وكيف تكون تلك الفتاة، محاولا رسم صورة لها في مخيلتي، إلا أنني لم أستطع فعل ذلك، لم أستطع رسم صورة لفتاة لا أعرف عنها سوى اسمها، فالوصف لا ينشأ من الفراغ أو من العدم، فكل وصف نقوم به أو خيال يراودنا لا ينشأ إلّا من صورة مثيرة يتم تخيلها.

لم أكن أعلم ما الذي يجب عليَ فعله، وقد أصبحت أعصابي مشدودة إلى حدّ مؤلم وقاسي، جئت إلى هذه البلاد التي لم أكن أتصور يوما أن أكون بها، تخيلت أن أزور كل مدن الأرض وبلدانها إلّا هذه البلاد، وفي النهاية جئت، جئت أبحث عن تفاصيل وأسرار وخبايا لفتاة تدعى سارة، وها أنا الآن أبحث

عن فتاة أخرى تدعى أمل، لعلّي كنت ساذج وغبي حينما صدقت تلك العجوز التي انحنى ظهرها، وشح بصرها، ولعلها قد فقدت ذاكرتها.

بدأت أفكر بالعودة إلى مدينة سايكا، والسؤال من جديد عن سارة هناك.

هممت بالنهوض ومغادرة هذا المبنى، غير أن فتاة جلست بالقرب مني وعلى ذات المقعد، فآثرت البقاء عدة دقائق أخرى بهدف عدم إحراجها بمغادرتي.

حينها وقع بصري على الكتب الموضوعة في حجر الفتاة، فتبين لي أنها تدرس الطب، ولا سيما بعدما قرأت إحدى عناوين الكتب، كانت هذه فرصتي الأخيرة، والمحاولة الأخيرة في هذا المبنى، فبادرتها بالحديث قائلا:

- معذرة على المقاطعة هل لي بسؤال؟

نظرت إلي الفتاة بمعالم وجه ثابتة لا تدلّ على امتعاض ولا على ارتياح، فهزت رأسها بالموافقة، فقلت لها:

- هل تدرسين الطب هنا؟

نظرت إلى كتبها وإلى الكلمات المكتوبة بالخط العريض، والتي

لا تدلّ إلا على سؤال ساذج وسخيف، مشيرة برأسها كعلامة إيجاب وهي تبتسم، فقلت لها:

- منذ مدة وأنا أبحث عن فتاة تدرس في كلية الطب، ولم أستطيع الوصول إليها حتى الآن، ولا أعرف عنها سوى اسمها، وبأنها تدعى أمل.

رفعت الفتاة رأسها باتجاه السماء بزاوية حادة وكأنها تسترد ذاكرتها وإن كانت تحوي على زميلة بهذا الاسم، وبعد تفكير وتأمل دام بضع ثواني قالت:

- لا أعلم، اسم أمل تحمله العديد من الفتيات هنا، هل تعرف معلومات أخرى غير اسمها؟ بدأت بالتفكير وبصري مصوب بموضع قدمي، هكذا نحن البشر، أناس يستمدون أفكارهم ويسترجعون ذاكرتهم من السماء، وأناس آخرون يستمدونها من الأرض.

فقلت لها:

- نعم هي من مدينة سايكا، تركت المدينة منذ فترة وجيزة هي وعائلتها، وهم الآن يسكنون في ضواحي العاصمة.

ضحكت الفتاة ضحكة طويلة، دون أن أعرف سبب تلك

الضحكة، وهل كانت لكنتي هي السبب، وعندما انتهت من ضحكتها قالت:

- تقصد آمال وليست أمل!

- في الحقيقة لست متأكد من ذلك، وإن كانت آمال هذه من مدينة سايكا وغادرتها منذ شهور فمن المؤكد أنها تعرف أمل، ولكن أخبريني كيف ألتقي بآمال هذه.

نهضت الفتاة وهي تقول:

- الأمر بسيط، اتبعني آمال هناك برفقة تلك الفتيات اللاتي يقفن أمامنا.

كانت لحظة أشبه بالصدمة العاطفية، أو كتلك الوخزة الموجعة المفرحة التي يصاب بها قلب محب حين يرى محبوبته على حين غرّة، ودون لقاء مدبر، كان يغزو جسدي جملة من الانفعالات، أشبه ما تكون بالأمواج المتلاطمة في خضم كل ما أشهده من مستجدات مثيرة وغريبة، ففي الوقت القاتل، الوقت الذي كنت أنوي به مغادرة هذا المكان دون رجعة عثرت على تلك الفتاة، وأنا على بعد دقائق من رؤيتها والتحدث إليها، ابتسمت ابتسامة شعرت وكأني محوت كل الحزن وخيبات الأمل التي لطالما رافقتني في الأيام الماضية.

وقبل أن تصل إلى جمع الفتيات طلبت مني تلك الفتاة التي أنا برفقتها أن أنتظرها بعيدا، وهي سوف تذهب لتخبر أمل بأني أود التحدث إليها في أمر مهم، ولكنها عادت لتقول:

- أظنها سترفض، آمال فتاة مختلفة وأظنها معقدة، كثير من الشبان حاولوا التحدث معها إلّا أنها كانت ترفض الأمر، وتقول على حد زعمها أنها مغلقة الباب على قلبها بقضبان من حديد، وأضاعت مفتاحه ولن تجده حتى تنهي دراستها.

أخبرتها بأني أود التحدث إليها بأمر مختلف، لا أريد التحدث معها من أجل الحب وما شابه ذلك.

لتذهب الفتاة وهي ترفع حاجبيها وشفتها السفلى بإشارة منها بأن الأمر خرج من يديها، وأنا بقيت في مكاني، أراقبها من بعيد وهي تتحدث مع صديقاتها، تضحك مع هذه، وتمازح تلك، وأنا أبتلع الجمر في انتظاري، إلى أن اقتربت من أذن فتاة لم أرها سوى من الخلف وأخذت تحدثها وتشير لها إلي.

وما إن رأتني من بعيد حتى تركت جموع الفتيات واتجهت نحوي، تحث خطاها بشكل عشوائي، وبخطوات لا تشبه خطوات تلك النسوة اللاتي يضعن موضع قدمهن الثاني بموضع الأول، وما إن بدت لي ملامح وجهها من بعيد حتى تسمرت في مكاني، وكأني لفحت بموجة عالية من الانفعالات والاضطرابات،

وبدأت أشعر بحرارة الدماء في عروقي، وانحباس أنفاسي، وتسارع دقّات قلبي بإيقاع سريع وغير منتظم، وكأنه صوت حوافر خيول تعدو على أرض صلبة داخل صدري، وحوافرها تطرق أضلعي بقوة وعنف.

شعرت أن جسدي اخترقه برق لمع من السماء فأنار الأرض وقسم جسدي إلى نصفين، حتى قدماي لم تعد تقويان على حملي لفرط الدهشة والمفاجأة، وعيناي المشدوهتين تراقب خطواتها وتراقب شعرها الكستنائي القصير المنسدل على كتفيها، طريقة سيرها حولته لأمواج بحر لونتها شمس المغيب بلونها، وأخذ بالتلاطم ما بين مدّ وجزر، بل كان أشبه ما يكون بفارس يمتطي ظهر جواد يسابق الريح والزمن، وعيناها العسليتان تلمعان وترسلان وميض من نار ونور، نار علّها تذيب بياض الثلج الذي يلون وجنتيها، ونور علّه يضاهي ذلك النور المنبثق من ابتسامة رسمت على ثغرها، وأنا لا زلت متسمرا في مكاني لا أقوى على فعل شيء أو حتى قول شيء، وكأني فقدت صوتي، ورأسي يعج بكلمات محتجزة لا منفذ لها، ولعلّ لساني قد انعقد، بل لعلها حبال صوتي هي من انعقدت، لم أشعر إلا بأسناني الأمامية تغرس في شفتي السفلى، بحركة غير مدروسة، حركة بعيدة كل البعد عن ذلك الشعور الذي يخالج البشر في حضرة الجمال، حركة لا علاقة لها بالمشاعر والغرائز، حتى إني لا

أعلم من ذاك الذي أعطى هذه الأوامر المتتالية لعضلات وجهي للقيام بمثل هذه الحركة، ولكن كل ما أعلمه بأني لم أكن ذاك.

وما إن وصلت بالقرب مني حتى بدأت بتحريك تلك الشفتين النديتين، وهي تقول:

- كان علي أنا من تبحث عنك أيها الغريب وليس أنت من يبحث عنّي.

- هي محطات الحياة والحجارة التي نتعثر بها فتغير مسير طريقنا عندما ننهض، هي الصدف كلها تقودنا إلى أقدارنا، وتسوقنا إليها وتسوقها إلينا، وأظنك لا تعترضي على ما يمليه القدر علينا.

- بكل تأكيد لا أعترض، على كل حال لطالما تمنيت أن أشكرك على كل ما فعلته من أجلي، ولا سيما أنك قد عرضت نفسك للخطر من أجل فتاة لا تعرفها، هذا غير أنّي لم أتوقع بأنك أنت من سيبحث عني.

- أخبرتك هي أقدارنا ونحن نسير عليها، وبطبيعة الحال أنا لم أصنع شيء مهم أستحق عليه كل هذا الثناء والمديح، وأظنه واجب على أي شخص أن ينصر المظلوم ويساعد الضعيف، إن كان يملك القدرة على ذلك.

- بكل تأكيد، ولكن عليك أن تدرك أن البشر قد تغيروا، ولم يعودوا كما كانوا في السابق، فمثل هكذا أعمال، ومثلما صنعت أنت أصبحت من النوادر في زمننا هذا، فمثل هكذا قصص وهكذا مواقف أصبح مكانها كتب التاريخ والتراث فقط.

لم أجد جواب قد تخمر في ذهني، فكلامها كان صحيحا وهذا النوع من البشر أصبح من العملة النادرة في هذا الزمان، أنا نفسي لم أكن أعرف هذه الخصلة بي، أذكر جيدا المرة الأولى التي قمت بمثل هكذا عمل، قبل عدة سنوات من الآن، عدت إلى المنزل في وقت متأخر من الليل، كانت الشوارع مكفهرة والمدينة صامتة، سمعت صوت فتاة تصرخ وتطلب المساعدة، حينها كنت الوحيد في الشارع فممن كانت تطلب النجدة!

تتبعت مصدر الصوت، وأصبحت أجري بسرعة حتى أصل إليه، وحينما وصلت إلى هناك وجدت صاحبة الصوت فتاة لم تبلغ العشرين من عمرها، تقف بين ثلاثة من الشبان يحاولون إدخالها في سيارتهم، وهي تصرخ وتصارع للإفلات منهم، وما إن وقع بصرها علي حتى ازداد صراخها وهي تمد يدها لي من بعيد، وكأنها تحثني على إنقاذها، وكأنها غريقة ولا سبيل لها من النجاة سواي، حينها سرت إليها دون أن أشعر، ودون أن أفكر بأني أسير لمواجهة ثلاثة من الشبان من ذوي الأجساد الضخمة والقوية، وما إن اقتربت منهم حتى انهالوا عليّ

بالضرب، ولم أعد أذكر ما حدث لي في تلك الليلة، لم أعرف ما الذي حدث للفتاة، كل ما أذكره أني استيقظت لأجد نفسي على سرير أبيض وخاصرتي مضمدة وعليها آثار الدماء، كنت قد غرست بآلة حادة في خاصرتي، وفقدت الكثير من الدماء، وفقدت الوعي على أثرها.

كل ما أذكره من ذلك اليوم أن والدتي بدأت بتوبيخي لما أقدمت عليه، غير أن والدي لم يفعل ذلك، هو فقط همس في أذني قائلا: (لقد قمت بما كان جدك يوصيني القيام به، وبالمقابل لم أفعله طوال حياتي).

أنقذتني آمال من تفكيري، وانتشلتني من ذكرياتي، وكأنها قرأت ملامح وجهي وهي تقول:

- دعنا من هذا الآن، وأخبرني كيف أصبحت، على ما يبدوا أن أولئك الأوغاد قد قاموا بإيذائك، ولكن كيف سمحوا لك أن تذهب!

ما من شاب صنع ما صنعته حتى ساقوه إلى سجنهم في الريف الشرقي.

ابتسمت وأنا أضع يدي على جبيني المغطى بضماد، وقلت:

- قصة طويلة سأخبرك عنها فيما بعد، أما الآن فهنالك أمر أهم أود أن نتحدث به.

تبدلت ملامح الفتاة، من ملامح فتاة هادئة ومبتسمة إلى ملامح فتاة مستغربة ومندهشة، وبدأت تسأل عن ذلك الأمر المهم وتلحّ بالسؤال، إلّا أن السماء أنقذتني هي وغيومها الداكنة التي بدأت تتلبد وتطلق هديرها القوي منذرة بتساقط الأمطار، ما فعلته الطبيعة دفعني أن أعرض عليها أن تختار مكان غير هذا المكان، مكان نستطيع أن نجلس به ونتحدث بهدوء ونحتسي شيء ساخن في هذا الطقس البارد، وهنالك سوف أخبرها بكل شيء.

لم تستغرق وقت طويل بالتفكير لعرض شخص قد عرّض نفسه للخطر من أجلها، حتى انطلقنا سويا إلى مقهى الجامعة القريب، وفي الطريق إلى المقهى سألتها:

- أيهما أجمل أمل أم آمال؟

وما إن سمعت سؤالي حتى أطلقت ضحكة طويلة، حاولت أن تخفيها بيدها إلّا أن صوت ضحكتها كان يطغي على المكان، أخبرتني بأنها لا تعلم الإجابة، فهي تحمل اسم آمال في هذا البناء لارتباطه بأوراقها الثبوتية، وتحمل اسم أمل خارجه فهو الاسم المتعارف عليه عند العائلة والجيران، اتفقنا أن أناديها

بأمل كوني لست عنصرا من هذا البناء، فحركت كتفيها وكأنها لا تبالي لذلك.

وما إن جلسنا في المقهى وبعدما طلبنا ما نحتسيه حتى بادرتني أمل بالقول:

- على ما يبدو أنك جئت إلى بلادنا منذ مدة قصيرة، لكنتك توحي بذلك رغم تمكنك من لغتنا إلّا أن اللكنة واضحة، حتى ملامحك تقول ذلك، فمن أين أنت؟

- ولكنك نعتّني بالغريب حتى قبل أن تسمعيني وتميزي لكنتي.

ضحكت الفتاة مرة أخرى، وفي المرة الثانية أيضا وضعت يدها على فمها، لا أعلم إن كانت هذه الحركة عادة لديها، أو طقس من الطقوس التي تمارسه النساء، غير أنها ليست موفقة بتلك العادة وليست بمكانها، فضحكة جميلة كهذه لا يجب أن تختبئ خلف أصابع اليد وتحتمي بهن، وما إن انتهت من ضحكتها حتى قالت:

- سوف أعترف لك باعتراف صغير، عندما همست لي في ذلك اليوم أن أهرب، فعلت مثلما قلت لي، إلّا أني كنت مشفقة عليك وعلى مصيرك فلم أستطع الابتعاد كثيرا، ولذلك اختبأت في

إحدى زوايا السوق، وأنا أراقبك وأراقب مصيرك المجهول حتى إني كنت أتألم وأنت تضرب من أجلي، كنت على وشك أن أخرج إليهم كي يتركوك ويأخذوني، حتى أوقفني صوت جاء من الخلف وهو يقول: (اتركوه إنه من دولة آماريا).

هنا كانت الدهشة الأولى، والاستغراب الذي لون ملامحي، شاب من تلك البلاد وما نعرفه عنها ترى ما الذي دفعه حتى يقوم بمثل ما قام به؟

شاب من تلك البلاد وما نعرفه عنها ترى ما الذي جاء به إلى هنا؟

صحيح ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- صديقتك سارة.

هذا ما قلته.

وما إن تلفظت بهذا الاسم حتى تبدلت ملامح وجهها، وتحول ذلك الوجه المدور ذو البشرة الناصعة البياض كأنه الثلج، إلى كتلة حمراء ملتهبة كأنها النار، كل ما حدث كان أشبه بهزيم الرعد في سماء صافية ونقية، وعلى أثره بدأ الحزن والغضب يتسلل إلى معالم وجهها، وكأن سؤالي عن سارة قد لامس مكان

سر دفين داخل جوفها، ولامس جرح أليم لم يبرأ بعد، وهي تنظر إلي بارتياب وفزع من أعلى رأسي حتى أخمص قدمي، لم تكن تتوقع أن تكون سارة هي الأمر المهم الذي سوف أسألها عنه، وهي تتلفظ باسم سارة بصوت منخفض يكاد أن يسمع، وكأنها تتذوق طعم المرارة من على شفتيها، طعم الوجع والألم.

وهل للألم والوجع طعم لنتذوقه!

يا ترى ما هو طعم الألم، من المؤكد بأن له طعم ولكنه طعم مختلف غير الأطعمة التي نعرفها، طعم لم يكتشفه العلماء بعد ولن يكتشفوه.

حاولت أمل النهوض دون أن تتفوه بأي كلمة، ودون أن تنظر في عيناي، وكأنها تهرب منهما ومني غير أني تمسكت بيدها، ورحت أضغط عليها، وكأني غريق أتمسك بطوق نجاتي.

كيف لي أن أتركها تمضي بهذه السهولة، وأنا من أمضيت أيام مرهقة في البحث عنها، أصريت عليها أن تبقى بكل ما أملك من كلمات الإلحاح والتوسل، فإن ذهبت هي فلن أجد من سيساعدني بما أنا مقدم عليه، وإن ذهبت سأعود إلى نقطة الصفر ونقطة البداية من جديد، فكيف لي أن أتركها تختفي بعد أن ظهرت!

جلست أمل على مضض، كانت مرتبكة ومتوترة، غير أنها وقبل أن تعود إلى مقعدها أعلمتني بأنها لا تعرف أكثر مما يعرفه الناس عن سارة وقصتها، كانت كلماتها تخرج متراشقة ومتداخلة، وكأن الحروف قد اختلطت في فمها وتعاني من ازدحام شديد حتى تخرج، حتى أنفاسها كانت تهبط وتتعالى، كنت أسمع نبضات قلبها المتسارعة، فقد أصبحت بحاجة إلى مجال أوسع من هذا المكان، ربما يكون الفضاء إذا صحّ التعبير، فلم تعد هذه الجدران المحيطة بنا قادرة على احتواء كلماتنا المتراشقة وحزنها العميق، ولا حتى هذا المجال يتسع لحروفها.

كنت أحاول وبقدر ما أستطيع أن أخفف عنها ما هي به، وأن أقاسمها أوجاعها، لم أكن أعلم أن مجرد ذكر اسم سارة سيكون سبب بكل ما حصل معها من انفعالات، وبردة الفعل التي ظهرت على وجهها وترجمتها الحروف.

وجدت نفسي أخبرها عن اسمي وعملي، وعن ذلك اليوم الذي ليس ببعيد عندما أرسل صاحب الجريدة في طلبي وبدأ يحدثني عن سارة.

أخبرتها أنني لم أكن مهتم بقصة سارة فيما مضى، ولكن لم أجد نفسي إلّا موافق على تلك المهمة التي كلفت بها.

أخبرتها عن زيارتي لمدينة سايكا، وكل ما لاقيته من المتاعب

هناك، وردة فعل الناس لمجرد طرح اسم سارة عليهم، والتي لا تختلف كثيرا عن ردة فعلك.

أخبرتها عن العجوز التي أرشدتني إليها وسرت بإرشاداتها دون أي تردد.

أخبرتها أنني لا أريد أن ينتهي كل شيء حينما وصلت إليها، على العكس تماما أريد أن يبدأ كل شيء.

- أمن أجل هذا ساعدتني في تلك الليلة؟

كلماتها نزلت على مسامعي كما يصب الرصاص على الرأس، كما تتساقط قطرات المطر على أرض المستنقعات التي سئمت الماء والمطر، أقسمت لها أنني لم أكن أعلم من تكون، وكل ما حدث كان محض صدفة وترتيب قدر، واليوم فقط حتى عرفت أن الفتاة التي حميتها في الأمس هي ذاتها الفتاة التي أبحث عنها، وكل ما أسعى إليه وكل ما سوف يجري ليس مجد شخصي ولا حتى هدف مجهول، كل ذلك سيكون بصالح الحقيقة وصالح صديقتك والتاريخ

فكري جيدا بما قلته لك.

ذهبت أمل دون أن تقول أي شيء، ودون أن تبدي أي انطباع،

ذهبت وكأنها كانت تنزف أثر جرح قديم، جاء ذلك الغريب الذي هو أنا، ليلكمه ويعيده إلى ما كان عليه، ولكن يبقى الجرح جرح حتى وإن شفي تماما، حتى مكانه وآثاره تسمى ندب جرح قديم.

غير أني لم أكن لأدعها تذهب هكذا، لأعطها عنواني ورقم هاتفي المحمول، وكل الأشياء التي يمكن أن تجمعني بها مرة أخرى، علّها تفكر بهدوء وتروي، فأنا أعلم أن كل القرارات التي تتخذ في الأوقات الحرجة والعصيبة والهيجان الداخلي وانعدام التركيز، كلها ستكون اختيارات غير صائبة.

افترقنا هناك عند باب المقهى دون أن أعلم إلى أين ستكون وجهتها بعد هذا اللقاء الكئيب، ومثلها كنت أشعر، لم أكن أعرف أين أذهب وأي الأماكن ستناسب ما أنا به من ارتباك وفوضى، رغم معرفتي بأن الأماكن المناسبة تلعب دور إيجابي بتهدئة النفس والروح على حدّ سواء.

كنت أفكر بمصير قصاصة الورق التي أصبحت بحوزتها، والتي كتبت عليها عنواني وكل سبل اللقاء مرة أخرى، يا ترى أين تسكن الآن؟

في محفظة نسائية بين قلم أحمر الشفاه وقلم أزرق وآخر ملون!

أم وسط زحمة وفوضى من الأوراق واللوازم النسائية!

أم أنها ستكون في جيبها المظلم وتعاني من طريقة سيرها العشوائية!

أم تراها سقطت في أقرب حاوية للقمامة وهي تسبح الآن هناك!

وبينما أنا سارح في خيالي وتائه في زحام الأفكار لم أجد نفسي إلّا وأنا أقف على باب المقهى العتيق.

يا ترى ما هذا السر الخفي الذي يجرني إلى هنا، دون أن أملك من أمري شيء، فلم أكن على الإطلاق من هواة هذه الأماكن، التي تحاكي الماضي أكثر من محاكاتها للحاضر والمستقبل، لا أذكر أني زرت متحف طوال حياتي الماضية، كنت أرى كل من ينظر إلى الماضي وأمجاده الغابرة ليس إلّا شخص ضعيف، يتباكى على اللبن المسكوب، كنت أراه شخص عاجز عن تحقيق أي إنجاز يذكر، ولذلك يربط فشله بالحاضر فيهرب من حاضره ومستقبله إلى الماضي وأمجاده، رغم أنه لم يكن شريك في ذلك المجد الذي انقضى، ولم يبقَ منه سوى آثاره، كنت أرى أن الماضي له وظيفة واحدة وهي عبارة عن دروس ومفادها عدم الوقوع في الخطأ الذي سبقنا غيرنا في الوقوع به.

أخذت مكاني في مقعدي المعتاد، وبدأت بتجاذب أطراف الحديث مع الأشخاص الدائمين الحضور في هذا المقهى، بعدما انضم إلينا آدم، وكأني منهم، وكأنهم مني، حتى ذلك الشعور الذي لطالما يلازم أي شخص تطأ قدماه أرض غير أرضه، وبلد غير بلده بدأ بالتلاشي شيئا فشيئا لدرجة أنني لم أعد أشعر به.

هل لأن جذوري من هذه الأرض، وأجدادي ولدوا هنا ودفنوا هنا!

أتراها تعرفت علي هذه الأرض، وقالت هذا فلان من سلالة فلان، هذا من أبناء أبنائي الذين خرجوا فيما سبق وها هم يعودون إلي!

ولكن لم آتي إلى هنا من أجل الأرض ومن أجل الأجداد والسلالة، جئت من أجل غاية وهدف يتبعهما رحيل ربما لا لقاء بعده.



مرّ يوم دون أن يصلني أي اتصال أو خبر من أمل، هذا اليوم خلّف في داخلي شعور غريب لا عنوان له سوى خيبة الأمل، ورغم أني لو أردت لاستطعت أن ألتقي بها من جديد، بعدما تعرفت عليها، وارتسمت صورتها في ذهني، ومعرفة عامها الدراسي وأشياء أخرى، غير أن هذا كله لن يحلّ من المشكلة شيء ولن يعالجها، طالما أنها لا تريد التحدث عن سارة، فلم يكن لديّ أي ملجأ سوى الكتابة، الكتابة عن يومياتي في مملكة النرد وعن جزئها الشرقي الذي أعيش به الآن، إلّا أن الحدث الغريب الذي عدت لتذكره مرة أخرى وكأني قد نسيته هو ذلك الكابوس الذي كان يقض مضجعي فيما مضى وغيابه عني وعن نومي طوال هذه المدة في هذه البلاد لم يزرني ذلك الكابوس منذ أن وصلت إلى هنا وكأني قد تركته هناك، أو لعلّه قد أضلني في هذه البلاد النائية البعد.

في صباح اليوم التالي، وأول ما بدأت به يومي هو مراجعة الرسائل والاتصالات الواردة، لم تكن أمل من ضمنها، ويا ليتها كانت هي ولم يكن أحد.

لم تكن مثلها مثل ذاك الكابوس، ولكن شتّان ما بين هذا وذاك، غائب تكون سعيد لغيابه وبعده عنك، وغائب تكون تعسيا لغيابه وانقطاع أخباره عنك، فكيف يتساويان في التشبيه حتى وإن جمع بينهما عنصر الغياب.

أمضيت جلّ يومي في الكتابة والبحث عن كل ما يهم هذه البلاد، لم أكن أبحث في الجزء الشرقي من مملكة النرد فقط، كنت أبحث في كل أجزائها وكل مدنها.

غريب أمري لم أتعرف على وطن الأجداد ولم أهتم به قبل أن تغزو قصة سارة حياتي، وكأنها لم تكن موجودة قبل ذلك التاريخ.

في المساء اتجهت إلى المقهى العتيق، فيومي لا يسمى يوم إذا لم يكن هذا المقهى جزء منه، أنا وهذا المقهى وجهان لعملة واحدة فالحزن وخيبة الأمل المرسلة من تلك النظرات وأصحابها في تلك الصور انتقلا إلي، فلم أكن أستطع البقاء طويلا في هذا المقهى، كنت بحاجة إلى فضاء أوسع من هذا الفضاء الضيق، كنت بحاجة إلى مجال أكبر من هذا المجال، أستطيع التحليق من خلاله أينما أريد، ولذلك خرجت، ووجدت نفسي أجوب شوارع المدينة وأزقتها الضيقة رغم ليلها المتأخر، وصلت إلى أماكن لم أرها من قبل ولم يسبق لي زيارتها، دخلت في أحياء لم أتوقع بأني سأكون بها في يوم من الأيام.

قادتني غريزة جامحة للخروج إلى شوارع المدينة، غريزة لا يمكن التحكم بها كغريزة حيوان هائج، ألقيت بنفسي في جوف المدينة وأعماقها كبحار مغامر يكتشف أعماق البحار

والمحيطات، كرحالة متحمس يريد الوصول إلى مكامن الأرض ومخابئها السرية والغوص بها، كشاب طائش يريد أن يجرب الحب مع فتاة زنجية فيغوص في أغوار جسدها القاسي والدافئ في الوقت عينه، كل هذه الأمثلة وكل هذه التجارب كنت أنا، كنت أريد أن أغوص أكثر وأكثر وأكتشف أكثر وأكثر في هذه الأرض المحاطة بالأمواج المتلاطمة، هذه الأرض التي تستقر على فوهة بركان لا يخمد.

لكم تثير شفقتي وحزني هذه المدينة، مدينة غريبة الأطوار الحزن والفرح يسكنها، الزهد والترف، الورع والمجون، اللين والقسوة، الجبروت والعطف، مدينة الأضداد بل لعلها هي الأضداد بعينها، ما تراه في وسط المدينة لا يشبه شيء في أطرافها، وكأنك انتقلت من مكان إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى.

فعندما كنت جالسا في المقهى كانت الإذاعات ورواد المقهى يتناقلون أخبار عن مجازر تحصل في الجهة الجنوبية، وأخرى على سواحل بحر الإيغو، وما من ضحايا سوى أبناء مملكة النرد، أنا أعلم أن المنطقة الجنوبية بلد أخرى ومنفصلة عن المنطقة

الشرقية مثلما هو الحال في المنطقة الشمالية المحاذية لبحر الإيغو، ولكن لا زالت تجمعهم كلمة النرد ولغتها، فهنا في هذه الجهة الشرقية كل شيء مختلف، المقاهي ونوادي السهر تعج بروادها من الرجال والنساء، وكأن من قتلوا هناك ومن هجّروا هناك هم من بلاد أخرى لم يسمعوا بها، وليسوا أولئك الضحايا من أبناء بلدتهم.

وما الغريب في الأمر، ما الغريب في بلاد ينام شخص على الرصيف يفترش الأرض ويلتحف السماء، وفي الأعلى هناك من ينام على الحرير، وقد أنعم عليه بكل مميزات الحياة العصرية والحديثة.

ما الغريب في بلاد تجد شخص يجمع قوت يومه، ولقمة عيشه من حاويات القمامة وآخر يهدر من الطعام والشراب ما لا يعدّ ولا يحصى.

لم أفهم هذه البلاد ولا أعلم إن كنت أكرهها، ولكن ما أعلمه أني لا زلت لا أحبها، رغم يقيني أن الذنب لم يكن ذنبها.

فكم كنت مخطئا يا جدي بكرهك لهذه البلاد وأرضها، ولكم

كنت مخطئا بما أورثته لنا من هذا الكره، فكان الأولى بك أن توجه الكره على من كان سبب في ضياع هذه الأرض وجهلها وتخلفها، وليس على الأرض ذاتها.

عدت إلى غرفتي، وعدت من جديد أراقب ليل هذه المدينة المتأخر من خلف زجاج النافذة، إلّا أني عدت بأفكار مختلفة غير تلك التي كنت أعيش بها وتعيش بي، فالأرض لا تستحق أن نكرهها أو نحقد عليها، وإنما الأولى بنا كره أولئك المتآمرون عليها وعلى أبنائها، فالأرض بريئة من كل الخطايا التي تمارس على ثراها، فلكم أشفق على هذه المدينة النائمة بصمت وسكون مريب، وبداخلها كل هذا الحزن والألم، فما أصعب النوم والحزن والألم رفيقك!

وصلني صوت رنين من هاتفي المحمول قطع كل ما أنا به من وقوف على أطلال مدينة الأجداد، كان ذلك الرنين عبارة عن رسالة نصية جاء فيها (سام...أنا أمل).

غزت السعادة قلبي الذي راح يتراقص فرحا وطربا بهذه الرسالة، وكأنه قد ولد لي أمل جديد، صاحبته هي بحد ذاتها أمل، فأخذت أكتب لها بلهفة غير معهودة مصحوبة بأصابع

مرتعشة تتسابق كي تظفر بالحروف (أمل... أقلقني غيابك، ظننت بأننا لن نلتقي بعد ذلك اللقاء، ولن نتحدث بعد ذلك الحديث، سعيد برسالتك هذه أكثر مما تصوري، متى سنلتقي يا أمل؟)

أرسلت الرسالة على عجل وأنا في حالة ترقب وانتظار لجواب يقبل عدة تأويل، إلّا أن الرد وصل سريعا ومفاده بأني سألتقي بأمل في الغد.

لم أعد أذكر إذا كنت قد صرخت حينها بصوت عالٍ، أو استرسلت برقصة مجنونة، كل ما أذكره أن حماسي ولهفتي أخذت أشكال مختلفة وغريبة، ربما لم أعهدها من قبل، فكم تتوق نفسي إلى يوم غد، اليوم الذي سيفتح به العالم ذراعيه أمامي، ويطلب مني الدخول إليه وإلى تاريخه، وأن يضاف اسم جديد في صفحاته هو اسمي.

ها قد بدأت الأمور تعود إلى نصابها، وأيام معدودات وسأنهي ما جئت من أجله، وأعود إلى بلادي.

بلادي...!

ولكن هذه الأرض أيضا بلادي، إلا أنها أرض خالية من ذكريات الطفولة وملعب الشباب، هناك طفولتي وهناك شبابي وربما سيكون مماتي هناك، وتبقى هذه الأرض أرض الأجداد، الأجداد اللذين قضوا نحبهم فيها.

فكم سيكون فراقك صعب يا أرض الأجداد!

أسك زاد



لا تهجروا أماكنكم العتيقة

واحتفظوا بعناوينكم القديمة

لربما يعود الغائبون ذات يوم

أسامة زراد

في صباح اليوم التالي خرجت قبل ساعة من موعد لقائي بأمل، كنت بحاجة إلى عدد من الأوراق لأدون عليها مجريات رحلتي، وما تبقى من هذه الرحلة، وعلّي أيضا أجد كتابا أو رواية أملأ بها أوقات فراغي، غير أنني لم أذكر أن رأيت مكتبة خلال ساعات تسكعي في هذه المدينة!

وبعد بحث في الذاكرة ودهاليز الذكريات والشوارع استطعت إيجاد مكتبة صغيرة أمام إحدى المدارس تبيع لوازم الطلبة، في حين لم أعثر على مكتبة مختصة ببيع الكتب والروايات، حينها شعرت بالصدمة والذهول من هذه النتيجة التي وصلت إليها.

أيعقل أن هذه المدينة لا تحتوي على مكتبات!

أيعقل بأنك لا تجد قارئ في هذه المدينة!

عدت بالذاكرة مرة أخرى إلى يومي الأول هنا، حتى وصلت بها إلى هذه الساعة، فلم أجد بها شخص يقرأ أو بيده كتاب، عدا أولئك الطلبة اللذين كنت أراهم في مبنى الجامعة، حتى أن جميع الكتب التي رأيتها بأيديهم، كانت كتب من ضمن اختصاصاتهم ومجال دراستهم.

فشتّان بين المتعلم والمثقف!

فما هذا إلّا من ذاك، أمة لا تقرأ، ماذا تتوقع أن يكون حالها!

تركت كل شيء خلفي متجه إلى كلية الطب لأجل اللقاء بأمل، وصلت قبل موعد اللقاء بعدة دقائق، وبعد أن أخذت مكاني في مقهى الجامعة، بدأت بتأمل من حولي علّي أرى أمل بين الجموع، ولكن دون جدوى.

مرت الدقائق سريعة، وقد تجاوزت موعد اللقاء دون أن تظهر أمل، ودون أن تخبرني بتأخرها، ليبدأ الشك يتسلل إلى داخلي، ومئات من إشارات الاستفهام تدور في رأسي، وأسئلة ملحّة، كادت أن تسبب لي قلق وارتباك، وكأن في داخلي حرائق ونيران متعطشة لماء يطفئ لهيبها، وما ذلك الماء سوى رؤية وجه أمل.

أيعقل أن تكون قد بدّلت رأيها، وتراجعت عن قرارها!

سلكت طريقي عبر المقاعد، حتى اقتربت من النافذة المطلة على ساحة الجامعة، علّي أرى أمل، فكانت الوجه الأول الذي يقع بصري عليه، وهي قادمة من بعيد، وشعرها الكستنائي القصير يقفز فوق كتفيها كمتسابق يمتطي ظهر جواده، عادت الطمأنينة إلى قلبي على أثر رؤيتها، مخلفة ابتسامة رضا، استطعت من خلالها دحر كل تلك المخاوف التي كانت تجول في رأسي، وقلت في سري:

- ما هذا إلّا من ذاك أمة لا تحترم الوقت والمواعيد ماذا تتوقع أن يكون حالها!

وصلت أمل بوجهها الوضّاء كسراج، ووجنتاها الثلجيتان المزينتان بأزهار الربيع، وأخذت مسترسلة بمفردات الاعتذار على هذا التأخير، إلّا أني قد اعتدت على هذا الطقس الذي يمارسه أكثر سكان هذا المكان، وبدأنا بالدخول بأحاديث شتّى ومختلفة، لا تشبه ما جئنا من أجله، تدور حول الجامعة، كيف وجدت بلادنا، أكثر ما لفت انتباهك هنا وغيرها من الأسئلة التي لا علاقة لها بما يشغلنا، فقط كنت أحدّق بوجهها وكأني أعرفها منذ سنوات، وكأني لم أرها منذ سنوات، وكأنها ازدادت جمالا وحيوية عن أول لقاء جمعنا، نعم هذا ما يحدث في بعض الأحيان، وعندما نلتقي شخص للمرة الأولى، لربما تراه شخص عادي أو لربما تراه شخص ليس بجميل، وفي اللقاء الثاني تتغير نظرتك في هذه النقطة، وتراه أجمل مما كنت تظن، وأحيانا تحدث شخص فتشعر أنك تعرفه منذ زمن بعيد، وأنت لم تره إلّا منذ فترة قصيرة وهذا ما حدث لي مع أمل، غير أنها قاطعت نظراتي تلك وهي تخفض رأسها خجلا، وكأن كل زهور الربيع الحمراء اجتمعن سويا لتلوين وجنتيها في لحظة خجل، وليتحول وجهها الأبيض كالثلج إلى باقة من أزهار حمراء تفتن كل ناظر.

كنت أبحث عن طريقة مثلى لإخراجها من تلك الحديقة الربيعية التي تسكن بها، وتعزلني عنها، فلم أجد سوى تذكيرها بأمر سارة وحكاياتها، هنا تغير كل شيء وسرعان ما ظهر شيء على وجهها المدور، وكأنه قد خرج شيء مؤلم من أعماقها، وكأنه آت من أحشائها ودواخلها، اضطراب هائل لون خدّها الأبيض المشرب بالحمرة، وحوله إلى اللون الأحمر القاني.

وخرجت كلماتها مدفوعة بقوة، قوة ليست إلّا ضربات قلبها وعنقها يرتعش، ويتألم من فرط الجهد المبذول، أو الذي هي بصدد بذله.

وأخيرا تمكنت من الحديث، وهي تخرج بضع ورقات مملوءة بخط أنيق، على أثره خرجت كلماتها باهتة وغير مفهومة، وهي تقول:

- أعلم بأنني لا أستطيع الحديث بكل شيء، وربما قد أنسى شيء لذلك قررت كتابة كل ما تحتاجه عن سارة، وبشكل مختصر، وعندما تقوم بقراءته، وحينها إذا أردت أن تكمل ما جئت من أجله، فسأعود وأكتب لك بالتفصيل الممل، وهنالك أشياء ستجدها في المقدمة ليس لها أي علاقة بسارة.

عندما أخذت الأوراق من أمل، وبعد أن أصبح السر بين يدي، كان كل شيء يشير إلى انتهاء المهمة، والوصول إلى الهدف الذي

جئت من أجله، غير أني لا زلت جالس برفقة أمل، ووجدت نفسي أتحدث بأشياء لا علاقة لها بسارة، أحاديث شتّى بعيدة كل البعد عن سارة وقصتها، وكانت أمل بدورها تبادلني أطراف الحديث، وكل ما انتهينا من حديث ووصلنا به إلى درجة الصمت، كنت أتطرق إلى حديث آخر بعيد كل البعد عن الذي قبله، ومثلي فعلت أمل، كلانا لم يكن لديه نية في إنهاء اللقاء، وكنا نختلق الأحاديث وننقب عنها، وكأننا في منجم من الذهب، إلّا أن الهدف هنا لم يكن الذهب إنما الأحاديث التي لا انقطاع بعدها، والتي أغلبها بدأت تتكرر، إلى أن وصلنا إلى لحظة صمت أشبه ما تكون بالنقطة التي توضع بأخر خاتمة رواية، ومشيرة إلى انتهائها، وفي داخلك صوت يصرخ لا أريد لهذه الرواية أن تنتهي، إلّا أنها قد انتهت.

افترقنا أنا وأمل أمام مبنى الجامعة، كانت كلمات الوداع ثقيلة، والحروف تتلعثم وتتبلكم على أفواهنا، كانت الأوراق ترتجف بيدي، وكنت أشعر بالتيه والضياع الذي لا مثيل لهما، لم أشعر بمثل هذا الشعور من قبل حتى وفي ساعاتي الأولى هنا وحتى في أحلك الساعات التي قضيتها على هذه الأرض، ثمة شعور ثقيل وعنيف جاثم على صدري، لم أكن أتوقع أن مثل هكذا شعور سيزورني وأنا أصل إلى الهدف الذي جئت من أجله، والذي قطعت بسببه أميال وأميال، هذا غير الصعوبات التي كانت

تعترض طريقي، كنت أراقب معالم المدينة وكأني أفتش عن مكان ينشلني مما أنا به، لم أفكر بالعودة إلى غرفتي وقراءة هذه الأوراق، وما جاء بها، كنت أهرب في اللاوعي ودون أن أشعر من تلك النقطة الموضوعة في أخر الرواية، كنت أتشبث بيداي وأسناني بالسطور المتبقية من هذه الرواية، كنت أهرب من كلمة النهاية، وانتهاء الرحلة دون أن أعرف ما هي الأسباب.

قادتني قدماي دون أن أشعر إلى ذلك المقهى العتيق وإلى رواده الدائمين الحضور، والأهم من ذلك كله، قادني بصري إلى تلك الصور التي سكنت الجدران، دائما ما كنت أهرب إلى هذا المكان لأتجاوز ما أنا به من حزن وألم، فمجرد دخولي إلى هذا المقهى كانت تهدأ نفسي وتسكن روحي، ولكن هذه المرة كان كل شيء مختلف، بل إن كل شيء كان عكسي، فلم تهدأ نفسي ولم تسكن روحي، على العكس تماما ازددت اضطرابا.

لعلها ساعة الرحيل تقترب...!

خرجت من المقهى مسرعا بعدما لاحظ كل من كان هناك الحالة التي أصابتني، خرجت دون اختيار وجهة أمضي إليها ودون تحديد مكان ألجأ إليه، إلّا أني كنت قد حددت ومنذ البداية الوجهة التي لا يجب أن أذهب إليها ألا وهي غرفتي.

كنت أبتعد عن تلك اللحظة التي أقرأ بها هذه الأوراق، رغم

كل ما عانيته من أجل الحصول عليها، ولذلك كانت الشوارع والأزقّة الملتوية هي ملجأي الوحيد، الذي أستطيع أن أقضي به أطول وقت ممكن دون أي إحراج، فكنت كمن يقف على أطلال أجداده ومدينتهم، بل كنت كمن يودع أطلال أجداده وجذورهم، سبق وأن سألت نفسي هل بإمكان الجذور أن تحتضن الأغصان والفروع؟

وإذا كنت أنا الأغصان والفروع هل بإمكان الجذور التي هي الأرض أن تحتضنني!

هل من الممكن أن أقوم أنا باحتضانها!

ترى من صاحب الفضل على من الغصون أم الجذور؟

عدت إلى غرفتي في وقت متأخر من الليل، وما إن وصلت حتى جلست خلف طاولتي، وقمت بفتح الأوراق وقراءة السطور:

- " مرحبا أيها الغريب

ربما تشعر باستغراب الآن لمناداتي لك بالغريب، رغم معرفتي اسمك!

أنت محق في ذلك، ولكن من جاء من بلاد بعيدة كل هذا البعد للبحث فقط في قصة سارة، لا أستطيع أن أناديه إلّا

بالغريب، الغريب الذي يجهل آلاف القصص التي تشبه قصة سارة، ومئات القصص التي توصف بأنها أشدّ بشاعة مما حدث مع سارة، غير أني لا ألومك إذا لم تصلك تلك القصص ووصلتك قصة سارة، ولكن قبل أن أخبرك بقصة سارة أتمنى منك ألا تيأس وألا تحزن، وذلك إذا وجدت ما حدث مع سارة لا يلبّي طموحاتك، ولا يصلح أن يكون رواية عالمية، تحلم أن تترجم إلى عدة لغات، أو فيلم سينمائي يحقق إيرادات عالية في يومه الأول.

أنت في مملكة النرد وفي إحدى دولها المفككة والمنهارة، وفي داخل كل شخص من أبنائها رواية وحكاية محجوزة في الصدور، وستجد ضالتك في صدور أبناء هذه الأرض، في حال أرادوا أن يخبروك بذلك.

قبل أن أبدأ الحديث عن سارة، وبعدما قرأت ما كتبت لك في البداية، لربما تسأل نفسك لماذا كل ذلك الارتباك والاضطراب الذي كان يظهر عليّ، ولمجرد الحديث عن سارة!

ببساطة شديدة أيها الصحفي الشاب لأن سارة صديقتي المقربة، ولربما تكون الوحيدة، وكنت أجد صعوبة كبيرة في الحديث عن أوجاعها وما عانته.

وربما تسأل نفسك أيضا، لماذا كل من سألته عن سارة كان يبدي

ردة فعل غريبة لو لم تكن قصة سارة تستحق!

وهذا ما سأخبرك عنه في السطور القادمة...

والآن دعنا نبدأ أيها الغريب ولكن قبل أن نبدأ انزع عنك أحلامك التي جئت من أجلها، وكأنك تقرأ خبر عاجل في جريدتكم كتبه أحد زملائك.

لن أطيل عليك بكلماتي هذه، وفي الحديث عن طفولة سارة صديقة الطفولة والشباب، فقد كبرنا أنا وسارة سويا خطوة بخطوة وتدرجنا بالتعليم، كانت صديقتي وزميلة دراستي، طفولتها عادية مثلها مثل كل الأطفال هنا، طفولة لا تشبه الأطفال، أو لربما لا تشبه الأطفال اللذين تعرفهم أنت، إلّا أنه وفي المقابل كانت أحلام سارة كبيرة جدا، كلها كانت أحلام مستقبلية، فعندما كنّا في المرحلة التي تسبق الجامعة، كنّا ننظر إلى أحوال بلدنا وتقلباتها، وأحوال أبناء بلدنا اللذين كانوا ينقسمون إلى قسمين، قسم مظلوم، وقسم مجروح، فتقاسمنا الأدوار فيما بيننا، درست أنا الطب من أجل مداواة المجروحين، رغم معرفتي أن جروح أبناء هذه الأرض هي جروح غير مرئية، ولا تحلّ بتطهير وضماد طبي، ودرست سارة القانون لتنصر المظلومين، وتقف مع الحق ضد كل ما هو باطل، إلّا أن سارة بدأت عملية الدفاع عن حقوق المظلومين باكرا حتى قبل أن

تنهي دراستها، فكان سلاحها القلم وذخيرتها الكلمات، كانت صاحبة قلم جريء، أظنك تضحك من هذا الوصف (صاحبة قلم جريء).

نعم أيها الغريب فمن أصعب الأمور لدينا في هذه الأرض، وعلى هذه البلاد أن تكون صاحب قلم جريء، لا أعلم ربما يختلف الأمر لديكم، ولكن ما أعلمه إن القلم الجريء هنا يكلف صاحبه الكثير، وربما يصل هذا الكثير إلى أن يفقد الشخص حياته.

هل تشعر بالصدمة!

لهذا أسميتك بالغريب.

نعود إلى سارة، كان قلمها يوجع المعتدين أكثر مما توجعهم الأسلحة والرصاص، وكانت أحلامها بسيطة، هي فقط كانت تريد وطنا، تريد أرضا، تريد بلاد تكون هي سيدة نفسها، تريد قادة وحكام عادلين وعلى قدر كاف من المسؤولية، كانت تريد وطنا لا أحد من خارجه يتحكم بمصيره، كانت تكتب لتخرج أولئك الغرباء من أرضنا، أولئك اللذين أصبحت لهم من السطوة والحضوة في بلادنا أكثر مما لنا بها، كان عدوها الأول هو دولة ميكافيل وكم سببت لهم من قلق واضطراب، بسبب قوة قلمها وجرأته، هذه المحاربة سببت لها عداوة من دولة

ميكافيل ومن ساسة بلادنا، اللذين يرون دولة ميكافيل حليف وشريك، وفي المقابل هي لم تكن سوى حليف للساسة وضامنا لهم بقاءهم في الحكم، وإبقاء بلادنا ضعيفة وهزيلة، حتى يتسنى لهم السيطرة عليها.

فهنالك فرق شاسع بين كلمة حليف وكلمة تابع.

كل هذه الأمور سببت لها الكثير من المتاعب، وبسببها سجنت أكثر من مرة، وكلما خرجت كانت تخرج أقوى وأصلب من قبل، و كان صوتها يعلو أكثر وأكثر وقلمها يزداد جرأة.

تخيل أن دولة ميكافيل سجنت والدها، وفي محاولة منهم أن يثنوها عن كتاباتها، ولكن ورغم ذلك كانت تزداد قوة كأنثى الذئب عندما ترى دمها.

وعلى الرغم من أن والدها قد قتل وهو معتقل لديهم، إلّا أن ذلك لم يثنيها ولم يوقفها، كانت ترى أن القضية قضية وطن وليست قضية أشخاص، إلى أن طالها غضب أولئك المعتدين، أخذوها من منزلها، ذاك المنزل الذي زرته مسبقا، ورأيت عليه آثار حريق، بالمناسبة هم من أحرقوه بعد أن أخذوا سارة منه، وتلك الفتاة التي وصفتها بأنها غير سوية هي ليست إلّا أخت سارة التي فقدت عقلها، بعد كل الذي حدث لوالدها وأختها، وتلك العجوز التي وصفتها بأنها قد هرمت، وربما تكون قد

فقدت ذاكرتها ليست إلّا جدّة سارة، فهل تلام إن فقدت عقلها!

هل خرجت من القصة؟

ولكنك أنت من طلب معرفة كل شيء عن سارة!

سأعود معك إلى سارة، وأخبرك بأن أولئك المعتدين ضيقوا على كل أهل المدينة بسبب سارة، كونها تنتمي إلى هذه المدينة، عاقبوهم جميعا لجرأة قلم سارة، ولذلك كانوا يعاملوك بتلك الطريقة عندما كنت تسأل عن سارة.

لم تمض سوى أيام حتى عادت سارة، ولكنها عادت جسد بلا روح، عادت جثة هامدة من دون لسان، تخيل أنهم قطعوا لسانها!

يا ترى هل قطعوا لسانها وهي حية أم قطعوه بعدما قتلوها!

كل ما أفكر في هذا الطرح أيها الغريب يرتجف جسدي وأكاد أن أفقد وعيي.

عادت سارة من دون أصابع أيها الغريب، تخيل أنهم قطعوا أصابعها التي كانت تكتب بها، وكأنهم كانوا ينتقمون من كل أعضاء جسدها التي كانت تهاجمهم بها.

يا ترى هل قطعوا أصابعها وهي حية، أم بعدما قتلوها!

ألا زلت تلومني على ذلك الشعور الذي أصابني، عندما طرحت عليّ اسم سارة!

قتلوا سارة ومثّلوا بجثتها ومارسوا عليها كل أنواع التعذيب والتنكيل!

هذه هي قصة سارة، أتمنى أن تكون قد أعجبتك، وأتمنى أن تكون قد استنبطت منها رواية عظيمة أو فيلم سينمائي مثير.

على أمل أن تكون قد استمتعت بهذه الرسالة أيها الغريب ".

عندما انتهيت من قراءة رسالة أمل بقيت بضع دقائق وأنا في مكاني دون أي حركة، وكأنني تمثال، فقط أنفاسي وتسارع نبضات قلبي وحدهما يدلّان على أنّي لا زلت على قيد الحياة.

أول شيء فعلته بعد أن استعدت قواي، هو كتابة رسالة إلكترونية، كتبت فيها:

" طريق الحلم صعب مثلما أخبرتني ومثلما وصفت، وسارة لم تكن طريق لمجد شخصي أو حلم لشاب في مقتبل العمر، إنما طريق سارة هو طريق أجيال تسير عليه.

هناك أشياء لا تكتب لأن الحروف تنفذ والحبر يجف عند الشروع بكتابتها، هي فقط تعاش وسارة من الأشياء التي

تعاش.

لقد فشلت في مهمتي يا دكتور ديفيد ".

أرسلت الرسالة إلى الدكتور ديفيد، ونهضت بعدما أخذت معي الأوراق التي كتبتها أمل، واقتربت من النافذة، بعد أن فتحتها على مصراعيها، وأضرمت النار في الأوراق، فهذا الرماد سيبقى في هذه المدينة وفي هذه البلاد، لعلّ أحدهم يجمع رماد الملايين ورماد المدينة ويبني مستقبل أفضل.

أغلقت النافذة وعدت لكتابة رسالة إلكترونية أخرى، كتبت فيها:

" أمل " وقمت بإرسالها.

لم تمر سوى ثواني معدودة حتى وصلني الرد على تلك الرسالة، برسالة أخرى كتب فيها:

" سام ".

عدت لأكتب مرة أخرى:

" هل لي بلقاء آخر، دون حضور سارة ".

كان الرد:

" غدا يا سام ".



ولها من الحُسن ما لأندلسية

جذورها دمشقية

استقرّ بها الأمر في تلمسان

أسرار

في اليوم التالي لم يكن هنالك شيء أهم من لقاء أمل، لذلك تحدثت معها واتفقنا أن نلتقي خارج ذلك البناء الذي جمع كل لقاءاتنا، فلم أجد مكان أنسب من ذلك المقهى العتيق، على الرغم من أنه مقهى يبدو وكأنه خاص بالرجال، إلّا أنه ليس هنالك خصوصية بذلك، ولكن لم أرَ فتاة تدخل المقهى، فكل رواده من الرجال، وأكثرهم من الطاعنين في السن.

التقيت أمل في وسط المدينة، كانت هادئة ومبتسمة، لم تذكر أي شيء عن سارة، ومثلها أنا فعلت، كلانا قرر مسبقا عدم التحدث عن سارة أو الخوض بما جرى معها، قلت لها:

- أنا من سيختار أول مكان يجمعنا خارج بناء جامعتك يا أمل.

ابتسمت دون أن تقول أكثر من:

- وأنا موافقة يا سام.

شعرت بالسعادة وأنا أسمعها تتلفظ باسمي، دون أن تنعتني بالغريب، وانطلقنا إلى المقهى العتيق، الذي لم يكن بعيدا كثيرا عن مركز المدينة، غير أنه كان ضائع في أزقتها، وما إن وصلنا المقهى حتى بدأت علامات الاستغراب والاندهاش تعلو

حاجبيها، وهي تقول:

- أنا ابنة هذه المدينة، ولم أكن أعرف بوجود هذا المقهى هنا!

قلت لها:

- وأنا سام، ولست الغريب.

ابتسم كلانا وما إن أصبحنا داخل المقهى حتى تسمرت أمل بمكانها، وهي تتأمل المكان بعيون تتلألأ، وكأنها نجوم أول الصباح، كانت تحدق بإحدى الصور المعلقة على الجدران، وكأنها ترى شخصية تعرفها من قبل.

جلسنا على مقعدي المعتاد، ولا زال الصمت يخيم على المكان، فالمقهى وفي ساعات الصباح يكون شبه خالي من رواده، وبعد برهة من الصمت، قالت وهي تشير إلى الصورة التي كانت تحدق بها:

- أتعلم أنّي من سلالة صاحب هذه الصورة!

بحكم إقامتي هنا وتعلقي بهذا المقهى، وكل ما يتعلق به، ومن جملتها هذه الصور وأصحابها استطعت التعرف إلى سيرهم

جميعا وفي أي الأزمنة كانوا، وإلى أي المناطق من مملكة النرد ينتمون، فقلت لها مستفهما وعلّي أبين لها مدى معرفتي بهذه الشخصية، وغيرها من الشخصيات:

- ولكن هذه الشخصية تعود إلى أبطال المنطقة الجنوبية من مملكة النرد.

نظرت إلي نظرة غريبة، ولعلها نظرة فخر أو نظرة استغراب، وهي تقول:

- هذا صحيح يا سام، أنا أيضا من المنطقة الجنوبية، جدي غادر المنطقة الجنوبية عندما كانت ساحة صراعات وحروب، وبعدما خسر والديه وأخيه هناك، وفي ذلك الزمان الذي كانت به مملكة النرد موحدة، وقبل أن تقسم إلى مجموعة دول، فاستقر بنا الأمر في الجهة الشرقية من المملكة.

كنت على استعداد لمعرفة الكثير عن أمل، وعن كل ما له علاقة بها، فطلبت منها التحدث أكثر عن جذورها القديمة وحياتها السابقة، فبدأت تنقل إلى مسامعي ما كانت تسمعه من جدها قبيل وفاته، وكأنها تتحدث بحديث قد مرّ بي من قبل، دون أن

أستطيع تذكره، كحلم راود أحدنا، وبمجرد استيقاظه لم يستطع تذكر مجرياته وكيف كان، إلى أن ذكرت اسم جدها، هنا تسمرت في مكاني، وشعرت وكأن الدماء توقفت عن الجريان داخل شراييني وأوردتي لمجرد سماعي بهذا الاسم، وكأني أقوم بعصر ذاكرتي بكلتا يداي، ليخرج منها ما أبحث عنه، وأمل بدورها تنهال على ذاكرتي بذكر أسماء غريبة عني، إلّا أني قد سمعت بها من قبل، جدها، والد جدها، والدة جدها، أخ جدها، منزلهم القديم، والحياة كيف كانت، وكل ما كانت تذكر شيء عن تلك الأرض، وذلك الزمان كان رأسي يزداد فوضى، والذكريات تتصارع داخله، كنت أكافح حتى أفهم كل ما يدور من حولي، وكل ما مرّ على مسامعي، كنت أكافح حتى أنتشل نفسي وذاكرتي من غموض مطبق ومشاعر متضاربة، إلى أن وصلت إلى نتاج فوضى العقل واضطراب الحواس، كل ما وصلت إليه لا يصدق، ولا يستطيع أي إنسان توقع حدوثه.

نهضت فجأة بعدما طلبت من أمل أن تنتظرني ريثما أعود، خرجت مسرعا دون أن أجد إحساس أو شعور يلائم كل ما أعيشه الآن، السعادة، الفرح، الحزن، الحنين، الألم، الخوف، فقط كل ما كنت أرجوه أن أستطيع الوصول إلى الغرفة، وأعيد قراءة

أوراق جدي القديمة، والتي أحضرتها معي دون أي سبب يذكر، ودون معرفة الفائدة من إحضار أوراق عمرها يقارب قرن من الزمن للمساعدة في قصة تتناول أحداث تجري في الحاضر.

كل ما بي من لهفة واضطراب وحماسة، كان يجبرني أن أجري أكثر وأكثر والوصول إلى تلك الأوراق الصفراء المهترئة بأسرع وقت ممكن، والتأكد من كل الأسماء والشخصيات والأماكن والعناوين، واسم عائلتي الذي غيّر، والذي لو لم يتغير لكانت الأمور أسهل.

أريد التأكد من أن جدي هو شقيق جد أمل، الذي نجا مثلما نجا جدي، دون أن يعلم أحدهم بنجاة الآخر، وكل منهما كان يتوقع هلاك الآخر وبأنه هو الناجي الوحيد.

كنت أريد التأكد من أن والدي يكون ابن عم والد أمل، وأمل...!

ولكن وأمل ماذا؟

تلك التي اجتاحت حياتي ودخلتها، كما يجتاح السيل المحاصيل، جاءت من المكان الذي لم أتوقع قدومها منه، وتزرع القلب

بالحب والأمل، ولتقضي على كل ذاك الخراب الذي سبق دخولها.

يا ترى ماذا سوف أسمي أمل في حال تطابقت أوراق جدي مع كل ما قالته!

ماذا لو كنّا أنا وأمل من ذات الأرض التي ابتلعت أحلامنا وأجدادنا!

ماذا لو كنّا أنا وأمل من ذات الأرض التي جمعت فيما بيننا الآن!

وما إن وصلت إلى الغرفة، حتى بدأت بإخراج أوراق جدي القديمة، وكأني أنقب عن كنزي الضائع منذ سنين، بل كمن يبحث عن كنز الآباء والأجداد، كنز عائلة نستها السنين وغطتها رمال الصحراء وابتلعتها الأيام، وفرقت شملها الشهور، وجئت أنا، أنا الحفيد القادم من بعيد لجمع فتات ما بعثرته الرياح والأيام.

نعم أنا من سيعيد لم شمل عائلة عصفت بها رياح الجنوب، وحرقتها ألسنة النيران ولهيبها، وذرتها الرياح في كل أصقاع

الأرض، جئت من بعيد كطائر منسي، كفارس ذهبي من قبيلة مغمورة، كسيل جارف جاء ليغذي نهر اضمحلت مياهه.

أخرجت الأوراق وبدأت بقراءتها بنهم، كقارئ جائع، ولن يسدّ رمقه شيء غير هذه الحروف وهذه الأسماء وهذه الأحداث، والبدايات والنهايات، وساعة الفراق وساعة الوصل، والمكان والزمان.

شعرت بالغصة التي كانت تتحدث بها أمل على لسان جدها في الحروف والكلمات، التي كتبها جدي على هذه الأوراق، واجتمعت السعادة والحزن ووجع السنين وقسوة الأيام، كلها اجتمعت في ورقة كتبت بخط جدّي وبحروفه المرتعشة.

جمعت كل الأوراق والصور التي لها علاقة بجدي بل بأجدادنا، وخرجت لملاقاة أمل، لكي أخبرها عن جدي وتخبرني عن جدها، لكي أحدثها عن والدي وتأخذني من يدي لملاقاة والدها.

فكم هو جميل أن يظهر كل هؤلاء الأشخاص في حياتك، بينما كنت تظن نفسك وحيدا في هذه الحياة.

كنتت أسابق الزمن، وأتحدى عقارب الساعة كي أصل إلى أمل،

لم أعد أريد أن تمر دقيقة واحدة وأنا بعيد عن عائلتي، وعائلة جدي، لذلك اخترت طريقا مختصرا علّي أحظى ببضع دقائق من حياة جديدة، وكلمات الدكتور ديفيد تطرق ذاكرتي، وفي ذلك اليوم الذي ليس ببعيد وهو يحثني على السفر، وأن أنتهز الفرصة الذهبية التي كان عنوانها "سارة"، والتي من شأنها أن تأخذني إلى مجد كتاب عظيم، والتي ستنقلني من عالم إلى آخر.

يا له من قدر...!

هذا القدر الذي ساقني إلى هذا المجد، ساقني لكي أحتضن جذوري، وأحنو إليها كما تحنو الأغصان على الجذور.

قطع ذاكرتي وكل أحلامي المستقبلية أصوات ضجيج وصراخ، يكاد أن يبلغ عنان السماء، والناس يجرون من حولي مذعورين، وبدأت أصوات البنادق تعزف سمفونية الدم والموت.

وفجأة أصبحت أرى أحداثا وكأني مررت بها مسبقا، وكأن الكابوس الذي لطالما كان يرافقني في نومي قد تحول إلى حقيقة.

وجدت نفسي أقف في وسط دوامة من أناس غرباء، يهرعون

باتجاهات مختلفة، وعلى وجوههم علامات الهلع والجزع، وكأني أنا مركز الأرض وكل من عليها يسيرون في فلكي، وأنا محاط بأشخاص كثر، دون أن أستطيع التعرف على أحدهم، أو حتى التعرف على المكان الذي وجدت نفسي به، كل هذه الفوضى وذاك الدوران الذي اجتاح عالمي الخارجي، بدأ بالتسلل إلى عالمي الداخلي، ليستقر في رأسي مسبباً لي ألم لم أعهده من قبل، ولم يزرني طوال حياتي السابقة، ألم جعلني أفقد توازني وخارت قواي على أثره، لأسقط أرضا، وبعد أن كنت لا أرى إلا وجوه أصحابها مجهولون بالنسبة لي، أصبحت لا أرى سوى أقدام تلك الوجوه، تتنقل من حولي تنقلات سريعة وعشوائية، لتصيب إحداها خاصرتي بركلة أنستني الصداع الذي سكن رأسي، فرحت وكأني أعجن خاصرتي من شدة ما سببت لي من ألم، غير أن ذلك السائل الساخن الذي امتزج بيداي شلّ كلّ حركاتي، وأصبت بحالة من الفزع وأنا أرى يداي تقطر دماً، وأنفاسي توشك على الانقطاع.

النهاية



